مكتبة الأسرة

كتابات شابة

سوق النخاسين

قصص

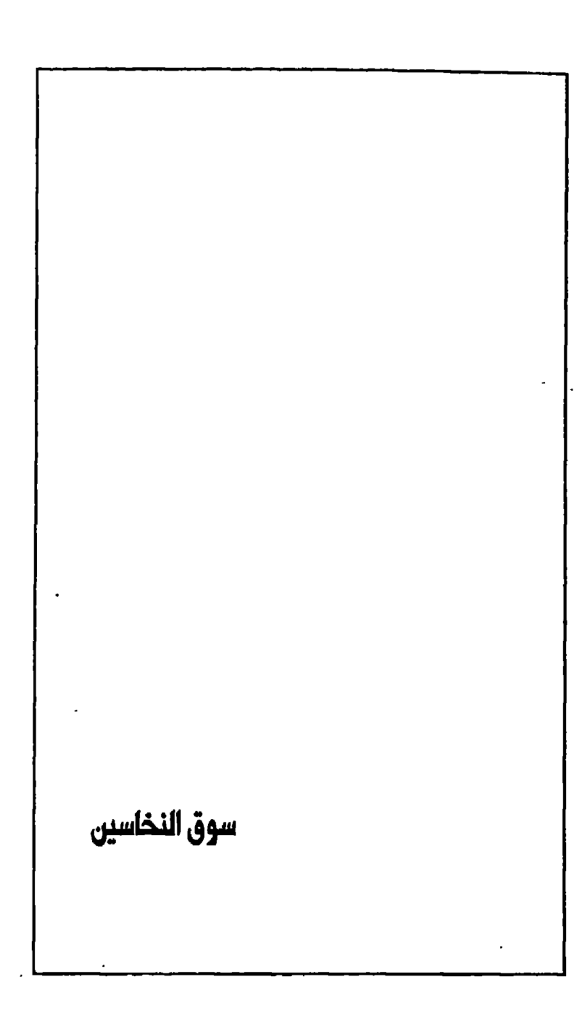
حسان يوسف المحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

مهرجان القراءة للجميع


سوق النخاسين



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(كتابات شابة)

سوق النخاسين
حسان يوسف أحمد

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام
د. سمير سرحان

سوق النخاسين

قصص

حسان يوسف المحمد

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

● الفـــراكيح ●

.. وهات معك أركيلة يا ولد ..

وأم العيال تنق كل مرة ، لـــكن هذه المرة بألف ، مثل غلطة الشاطر أخى (أبو حمدى) ..

يا سيدى طلبت منى أحذية للأولاد . طبعا هـــذه بسيطة ، لأن محسوبك نصف اسكافى ونصف خضرجى، على رأى صفيه (اسكاجى) .

أخوك ســـعدو متعيش عـــلى عربة ، مرخصة الله وكيلك طقت خواصرى حتى حصلت على رخصتهـــا من البلدية ، شـــغلونى مثل المـــكوك ، أوراق ، طـــوابع موافقات ، براطيل ..

تخيل من فرط دهشتى إستظرفت عـــلى المـــوظف وسألته :

ــ أستاذ ما طلبت حسن سلوك وست صور شخصية للعربة ؟

قام الأخ تنقرز وأخر الرخصة يومين ٠

المهم فصلت للعربة طابقين ، الفوقانى لنعمة ربك الكريم الخضار ، والتحتانى لحوافر البنى آدمين ٠

أبيع الخضار من بزوغ الضوء حتى تنفق الظهريات بسوق العتيق ، بعد ما أضرب مشوارى قبل طلوع الضوء من المزة القديمة للبساتين أو لسوق الهال وبالعكس ٠ وبعد العصر أجوب بحداوى البشر فى زقاقات وزنقات الحارة حتى لمة الضوء ٠ بالتنزلات شد فرامات يا سعدو ، وبالطلعات شد ظهرك ، آخ من هذا العمر ٠

وما خلصت من المشاكل ، مسكونى جماعة البلدية، فقعت خواصرى من الضحك ، قليت المرة خبزهم ليس عندى ، ولن أعطيهم ولا (متليك) ، أيام زمان ولت يا بلدية ٠٠

هرب العربجية ، تسمرت بمكانى ، طالعت الرخصة من صدرى ووضعتها أمام وجه رئيس الدورية، وضحكة شماتة ملء وجهى ، لكن لو دامت لغيرك ما وصلت اليك ، قفز قرد من بينهم وقال :

ــ هذه الرخصة لغير عربة ٠٠

ــ نعم ؟!

ـ هذه الرخصة لعربة بطابق واحد ، وعربتك بطابقين •

واستظرف آخر : الرخصة لعربة على الهيكل ، هذه طابقين مع الفرش • عملوها قصر يلدز أولاد المستورة •• وحتى ما تفقع مرارتى ، دكيت بجيب الشباب (حمرا أم الخمسين) من لقمة الأولاد ، وقلت : عيش ياكد ••• ي •• ش ••

ياسيدى مستورة ، ولولا عر الأولاد ونق أمهم كنا أحسن ناس ، البركة تسعة ماتشوف لمعة ، والأسعار نار •• هات نارة يا ولد ••

الكبير ابن عشرين بخدمة العسكرية ، الصغير ابن سنتين تعرف حالته ، لولا ما ذنوبي كبيرة ماكان تبرطن دمه ، وبعده مثل زهر التفاح ، وكل يوم تتأخر صحته عن يوم ، من المواساة لمستشفى الأطفال ، للعيادات الخاصة و •• وعدلا تعد ، والأدوية أسعارها نار يشعل السيجار •• هات تنباك يا ولد ••

مصاريف زهر التفاح والكديش الكبير ، تستنفد أرباح الطابق الفوقانى ، وأنا والبنات وأمهم نقتات من (صرامى) الطابق التحتانى •

قلت لى أين المشكلة ؟

بدايتها يا مرحوم البى من يوم عزل جارنا فايز من

الحارة ، الله يذكره بالخير ، كان الرجال آدمى (شرواك) ، وسكنت محله الأرملة أم عزة • والباب على الباب صارت تصبح صفية ، والباب على •• دعتها على فنجان قهوة ، والباب ••

أسبوع زمان صارت الأرملة تلفى على البيت••

أول دخولها ، قلت لحالى الحرمة أرملة ، حرام تأخذ نفسا بدخلتها على البيت ، فيها ثواب •

المرة الثانية قلت يا سعدو الحرمة حلوة ، مثل فلقة القمر مقطفة معطرة ، زين عينيك بعد تعب النهار يصورتها ، وفيها ثواب •

صفية أميزها من بين ألف امرأة ، رائحة طبيخ ونقيق ، والابتسامة لا تريها لمخلوق ولو كان راجع من الحج ••

أم عزة ، عندها صبية وحيدة ، والبنت وأمها على أحسن حالة ، أطيب أكل ، وأجنخ لباس ، وآخر موضة، تفتحت عيون الحرمة على أشياء جديدة ما كانت تعرفها •

يا سيدى علاقة هذا الكلام بالأحذية ، لما قالت صفية أحذية للأولاد قلت تكرمى ، فرشت شوالات الحداوى بأرض الديار ، أنواع مختلفة ، جزمات غوما ، خفافات

بلاستيك ، قباقيب خشب ، كنادر نعل وجلد بغل و . . مشكل . .

ناديت تعالوا يا أولاد قيسوا ونقوا ، عمره ما أحد يرث .

طلعت المسألة ليست مجرد أحذية ، نطت صفية مثل نطة المى من نافورة بحرة هذه القهوة وصاحت :

ـ (هدول ما بينفعوا ، هدول لأمثالك) .

يعنى أنا مثل خبز الشعير ، مأكول مذموم . قفزت لأضربها ، ردونى البنات عنها ، والصغير خاف صار يزعق وروم بوله تحته . .

هات تنباك يا حبيبنا . .

زوقونى ، عفيت عنها ، لولاهن ما تركتها ، كنت طقيت رقبتها وحياتك . المهم ركنت وقلت لها :

ـ لكن ست الحسن ، شو بينفع لأمثالها ؟

قالت : الأولاد بحاجة لأحذية طبية والا بينفكحوا .

ما فهمت قلت لها : بلا مؤاخذة ، أين يبيعونها هذه في الصيدلية !

دق . . طرقة تجاصة الباب . فتحوا ، أهلا وسهلا بأم عزة . .

ـ سألت عن صوتنا العالى ، لموا الحداوى بالشوالات، وبركت المخلوقة •

قعدنا لمة بأرض الديار ، لما بدأت صنفية تصب الشاى تجرأت ونظرت : (شلال شعر ، تحته جبين وسع ساحة الميسات ، قلبة عيون بتشطح ، خدود ورد ، رقبة جاموس ، وحمامتين ، و •• ، و لتحت نخلتين ، أصابع القدمين مزهرة بالطلاء ، منتعلة كلاش •)

فكرت بسرى يعنى الموضة من غير محل ، تشجعت ونطقت :

ــ سمعت جارتنا بآخر موضة ، موضة الأحذية الطبية •

وفقعت ضحكة وصلت لكيوان • جاوبتنى بضحكة لو طلعت من موقف الشيخ سعد بتقطع الفتالة وتلف بنزول على ساحة الأمويين ، وتركب غيارا لطلوع المهدى ين بركة •

وقالت : يوه ، هذه ليست موضة ، شوارعنا تحتاج لأحذية طبية ، بقية الأحذية فى هذه الشوارع تفركع الرجلين ، يصبح الولد بسببها فركوحا ، مشيته جنابى مثل السرطان •

قلت : الأحذية الطبية بتمشيه مثل السلطان !

انقهرت المخلوقة ، وقامت على طولها • .

قلت : والله ما تروحى مزعوجة ، أنا الغلطان ..

قالت : لست مزعوجة ، ذاهبة أحضر لك الأحذية الطبية ، لتشوف الفرق ، أو روح أنت معى .. طلعت بوجه صفية ، قالت :

ــ روح سعدو ، روح تفرج

قلت يا ساتر ودخلت خلف المخلوقة . مع صوت انغلاق باب الزقاق ، خرجت البنت من غرفة بالصدر ، بروب منامة ، غضيت نظرى .

ضحكت البنت ، وضحكت أمها ، قادتنى الى الليوان ، وخاطبت ابنتها ، فنجانين قهوة يا عزة لجنب البحرة .

جلست على طرف الديوانة ، قرفصت وسحبت من درج الخزانة .

زوج صرامى لو صحا لسقى منيرة ما ماتت .

لبست فردة وقعدت جنبى وقالت : تفرج ..

انسطلت ، ما شفت شيء .

قالت : المس .. لمست ، شيء ناعم ، أنعم من جلد الغزال . ضحكة مهسهسة دخلت لأذنى مع كلمتين : موهون ..

... خرجت من بيتها يا (أبو حميدى) ، وأنا

مقتنع أن الأحذية التي أبيعها سبب الفركحة بكل البلد، وأن الأحـذية الطبية ليست موضـة ، ولا بدعة تجـار لتحقيق أرباح بطريقة عصرية .. وعدت البنات وأمهم كل نفس بزوج أحذية طبية ، عن طيب خاطر .

وحتى ما يتفركح المخاليق أهل البلد بلقمة خضار مثل فركحتهم الأحذية التي أبيعها ، صرت أنادى بالسوق ثانى يوم :

بندورة طبية ، خيار طبى ، تعـال اشترِ ملوخيـة طبية بتحولك لسلطان .

اجتمع حولى أصحابى الباعة ، وشكل الناس حلقة تسمع من أطرافها :

لا حول ولا قوة الا بالله ..

نصف ساعة ، صوتى بح ولا أحد اشترى ، وتكبر الحلقة والناس تتفرج ..

لا تؤاخذنى (أبو حمدى) أركيلتك بحاجة لتغيير .

يا زهدى هات لعمك (أبو حمدى) أركيلة طبية .

انقرصت من الناس ، رفست العربة برجلى ، تفرق البشر ، اختلطت على أرض الشارع البندورة مع الخيار مع الملوخية مع ..

وقف السير ، وارتفعت أصــوات الزمامير ، جلت بصرى بزحمة وجوه البشر ، وأخذت أعفس الخضار ، صار لون الأسفلت أحمر مقلم باسود ..

صحت بأعلى صوت :

حمرا وخضرا ، بندورة وملوخية ، وكلها طبية .

وصلت سيارة لونها أبيض ، مرسوم عليها هــلال أحمر ، نزل منها ثلاثة رجال متسربلين بمراويل بيض، سحبونى من فوق الـ .. وين (أبو حمدى) ، ياحبيبنا أبو ...

هات لى (أبو حمدى) يا ولد ..

★ دمشق ـ آب / ١٩٩١

● الجنرال المثلج ●

(١)

أقول له أنا مصطفى يابيك ، أبو صطيف الآذن ، اسأل الموظفين والادارة ، وحتى أهـل الحارة ، الـكل يعرف أننى أبو صطيف لا أكثر ولا أقل ..

لا يصدقنى .. يضحك ضحكة خفيفة ، لا أخفى أنها تفرحنى ، يطبطب على ظهرى ، ويعيد :

ـ أنت لا تعرف قيمتك ، أنت أهـم شـخص فى الادارة والفروع ، أنت أكبر من المدير ..

أقول : يعنى على مبدأ كلب الأمير ، أمير ..

يقول : له ، له له ..

ويضحك ، ضحكة أحس أنها تعمل فى القلب حركة من الفرح والألفة بأحاديث الآخرين ..

أقول له : أنا يا بيك حاجب لا أكثر ولا ..

يقاطعني : أنت أهم من المدير ، والأيام جاية ..

●●●

(٢)

عندما أقول لزوجتى يا رقية ، تأتى من آخر الدنيا كى تعلن :

نعم ابن عمى .

أحيانا كانت تقول : نعم يا روحى ، يا نور عينى

لما أسمعها تقول ذلك لا أخفى عليكم أننى أطير من الفرح ، أتمنى أن أقوم لأرقص ، ولا أخفى عليكم أننى غالبا ما أنسى لم طلبتها ، وأقوم لمضاجعتها ..

رقية انتبهت الى المسألة * صارت تستغنى عن اغراءتها ، بأن تنتظر منى نداء لتقول كلماتها الحلوة المهسهسة .

فى الآونة الأخيرة زادتها رقية ، والواحد منا رجل له حدود ، وليس ثورا .. صرت أتغاضى عن مناداتها وأقوم بنفسى لأطبخ الشاى أو ألبى واحدة من حاجاتى .

.. المهم أننى اليوم أخبرتها عن البيك الذى يقول اننى أكبر من المدير :

فقالت : اى والله روحى ، خاصة على ٠٠ بتساوى عشر طنعشر مدير ٠

وضحكت ست الحسن ، وفتحت ٠٠

لو كنتم مكانى ماذا تفعلون ؟ أنا قمت وضربتها ٠٠

رقية جمعت ثيابها وحردت فى بيت أهلها ٠٠

صباحا قبل ما أقول يا فتاح يا رزاق، جاءنى حضرة الأخ ، وقال :

ـ أنت أكبر من المدير ٠

صرخت فى وجهه : حل عنا يا ٠٠ يلعنك ويلعن مديرك ٠٠ وحتى تكمل اللعنة ، انفتح الباب ، وصلت الى أذن المدير ٠ وكانت النهاية ، سرحنى البيك من الشركة ٠٠

★★★

(٣)

اشتريت صندوق بويا ، وسرحت بشوارع العاصمة ، ما مشى الحال ٠٠ قلت سوسه ، مالك بالبويا نصيب ، أنت لتقديم الشاى والقهوة ، مع حاضر سيدى ٠٠ دبن شغل بقهوة الحجاز ، غرسون ، قلت هذه شغلتك : اعط الخباز خبزه ، ولو ٠٠

نسيت حالى ، تدخلت فى أمور أكبر من شغل الغرسونية ، عملت مديرا على رأى البيك ، باختصار : كش ملك ، كشونا من القهوة •

فتشت بمرابع ودمر ، بالملاهى الليلية ، وجدت عملا بنادى اسمه القمة (قمة من الخارج ، ومن الداخل سفل) لقنونى القائمة : لا ترى ، لا تسمع ، امش بظل الحائط وقل : يارب السترة •

شو ؟ قلت : الستره ••

يا سيدى ما مشى الحال ، بس ربك ما تخلى ، يوم المشكلة كان البيك موجودا ••

كانت مطربة مثل فلقة القمر على المرسح ، لكن صوتها مثل حجر الطاحون • المثل يقول (تسمع بالمعيدى خيرا من أن تراه) هون بالعكس (شوف ولا تسمع) •

وضعت المشروب على طاولة البيك ، وبناء على أوامر مدير السخام للترحيب فيه كملك ، قلت :

ـ أهلا بالملك ، نورت المحل ••

ـ هلا صطفو ، هلا تنطح هلا ، شو وصلك للقمة ؟

ـ

ـ بسيطة صطفو ، هونها تهون ، كيف أيامك ؟

ـــ ما دمنا من الله بخير ، العبد ليس مشكلة ..

كلمة وجوابها ، قعدنا مع البيك ، كأس بعد كأس ، نسيت بقية الناس . اندمجت مع فلقة القمر ، سمعته صوتا ينادى :

صطوف .. صطفو .. صرت أتلفت كأنى لست المقصود ..

فتل رأسى ، قمت رقصت ، الناس انبسطت ، لكن جناب مدير النادى ما انبسط ، صار وجهه مثل قفا طنجرة المجدرة النازلة عن النار .

فلقة القمر أمسكت بيدى ، بلا طول سيرة كبر رأسى ، نسيت حالى وقبلتها .. بنت الحرام ما عجبها ، تركت الميكرفون وأمسكت برقبتى وجعرت : جربوع ، واطى ، ..

قال أنا جربوع ! لم أسكت قلت لها : حاج نعيق يا غراب البين .

بالمختصر : أكلتها ، ضربة على الرأس ، وضربة على .. بلا خدش حياء .. تورمت من فوق ومن تحت ، حتى تدخل البيك لانقاذى وحسم الموقف : كل واحد على طاولته ، ما صار شىء ، والمدموزيل تحسبها علينا .. ودس بيدها ست ، سبعمائة ليرة ، ابتسمت ونعقت للعواد : شغلها يا عبود ..

طلعت مع البيك ، تواسط لى عنــد مدير الشركة ثانى يوم ، ورجعت للشغل بعقد مؤقت جديد ••

وحنيت للحرمة ، رحت رجعتها ••

●●●

(٤)

صرت لما يدخل البيك أنحنى ، ولما يخرج أنحنى •

أول مرة جاء بعد عودتى للعمل ، قال :

ــ مصطفى ، لك أم للديب ؟ قلت خسا الديب ••

قال : هه ، يا مديرنا ، يا أحلى مصطفى ••

وترك فى يدى أربع ورقات زرق أم المائة ليرة ، ثم همس فى أذنى :

ــ أريد معرفة ما يدور فى مكتب الرقابة حــول مناقصة الآلات الجديدة •

قلت : لكن •• ما كمــلت بلعت البــاقى مع ريقى (لكن صغرتنى ، صيرتنى أصغر من صطفو ••)

رســت المناقصــة عــلى البيك ، وأحضر الآلات وركبت ، لكن الأستاذ زهــير المسيــئول عن اســتلامها ، أصلحه الله رفض أن يرفع له الكشف •

قيل الكثير عن السبب ، قال البعض أن الآلات غير مطابقة فى المواصفات للشروط المطلوبة فى العقد ، وزهير مبدئى ..

وقيل أن الأستاذ زهير لم تعجبه كبسة اليد التى كبسها له المتعهد لبيع ضميره ، قالوا ضميره أغلى .. وناس قالت :

الله أعلم ، ليس على ذمتنا ..

لكن النتيجة كانت نقل زهير من رئاسة قسم الى مجرد تقنى في قسم آخر . وقبض المتعهد ما يريد ، ولحس المدير أصبعه ، هذه على ذمتى ..

ولأن الأيام تسير ، فقد جاء المتعهد مرة أخرى ليقول للعبد الفقير صطفو ، يا مدير ..

وضحك صطفو .. وكمل البيك : لك أم للديب ؟

ومع خسا الديب ، ناولنى ملحفة أم الخمسمائة ليرة .. ثم قال :

رشيد صاحبك ، اذهب اليه ، وبلغه ليرفع كشف تنفيذ سقف البيتون الجديد ..

طرت الى الأستاذ رشيد ، وأول ماسمع الكلام قال :

ــ له يا عمى مصطفى ، أنت حاجب المدير أم حاجب المتعهد ..

ما دارت لى ، لمـا فهمتهـا قلت لحـالى انفضـحت يا صطفو ، وطاك للأرض ·

كنت أفتش عن عذر ، لما قال الأستاذ :

ـ هذا الكشف ، كرمى لعينيك ، أوصله للمـدير يوقعه ، وأعط نسخة للمتعهد ، والباقى للديوان ··

الملحفة ما طلعت لحمل الكشف من مكتب المهندس ليد المتعهد ، لأن البيك تسودن لما قلب الكشف ، وبحلق فيه ، وصـفن ·· ثم أعطانى الكشـف وقال ارجعـه لصاحبك وبلغه عن لسانى :

ـ أين يحب أن يسـهر اذا ألغى الحسـميات ، بالشيراتون أم الميريديان ؟

وشو ناقص بيته : ثلاجة ، تلفاز ، سجادة ؟

وأكد على العبد الفقير : أنصحه يا صطوف ، سيرة زمير بعدها ما بردت ·

أنصحه ··

تقلبت الأمور ، كبرت ، ونصـائح كثيرة وصلت لأذن الأستاذ رشيد · لكن المهندس رشيد جعل أذنا من طين ، والأخرى من عجين ، أصر على حسميات · بعـد يومين تم اعفاء المهندس رشيد من ادارة مشروع توسيع المصنع المركزى ، وتعين مكانه المهنـدس عبـاس بأمر ادارى رسمى ··

●●●

(٥٠)

أول ما صدر قرار تعيينه مكان رشيد ، قلت يا مصطفو احمل حالك وانصحه من أول الطريق قبل ما يركب رأسه مثل رشيد ..

باركت وقفدت ، ولما سنحت الفرصة قلت :

ـ الحياة بحر يا أستاذ عباس ، شركتنا تبلع بحر بدون ما تغص ، الشغل بحاجة للشد والرخى ، الأستاذ زهير شد حتى انقطع حيله ، المهندس رشيد شد حتى قطع الخيط ، يا أستاذ الحياة كلها خد وعين ..

فاجأني بقوله : أنا غير رشيد ، رشيد كردى رأسه يابس ، أنا مرن .

المتعهد تاجر يعرف اليد التى توجع ، شعاره أطعم الفم تستحى العين وأنا أجيد التعامل مع هذا الصنف .

قلت : ان شاء الله . ألقيت السلام وتيسرت .

بعد أسبوع سمعت لغطا بالشركة ، حمدت الله انه لم يصل الى المدير ، قالوا عن لسانه (ان أحدا لا يدرى كيف ترسو على المتعهد كل مناقصات الشركة ومزايداتها أيضا ، مع أن القاعدة تقول من يأخذ المزايدات لا يتعهد المناقصات ، لكن سبحان القادر !) .

جاءت ورشة المتعهد ركبت منجور الألمنيوم للقسم الحديث من المصنع .

بدأ الخلاف كالعادة ، كشف وخسميات · قلت قبل ما تكبر أزوره وأذكره بكلامه ·· :

قال : هذه المرة لا يوجد حل ، لا على الخافر ولا على النافر ·· قيمة الكشف تصل الى حوالى المليوني ليرة ، ضميرى يحتم على اجراء حسم يزيد عن عشرة بالمائة ، بسبب النوعية غير الجيدة ، وسوء التنفيذ فى التركيب والمخالفة فى بعض الأبعاد · وكل هذا نصف المشكلة ·

قلت : والنصف الثانى أستاذ ؟

قال : اتصل رئيس لجنة مبايعات الشركة ، وطلب منى أن أرفع وصلا باستلام منجور الألمونيوم مع ملاحظة أنه تم تركيبه · مع أن المفروض رفع كشف ، والحسم لا يجوز على الوصل ·

قلت : طيب اذا القاضي راضي ··

قال : لم تمض سوى دقائق حتى رن جهاز الهاتف، كان على الطرف الآخر الدكتور كرم رئيس قسم الرقابة : وبلغنى أن أنظم كشفا بالأعمال الأخيرة مع الحسميات والتوقيعات المناسبة ، أخبرته بالاتصال السابق ، قاطعنى قائلا : أنت يا أستاذ عباس مهندس وتعرف الأصول ، ارفع الكشف لا تسمع لمن هب ودب ، كى لا تقع الطاسة فوق رأسك ··

قلت : والحل يا أستاذ ؟

قال : فكرت وصفنت ، تمشيت شمالا ويمينا ، غربا وشرقا فى المكتب مثل رجل ينتظر امرأته التى تلد له أول كتكوت فى الغرفة المجاورة ٠

صرت أتحدث مع نفسى مثل المجنون وما ولدت المرأة صبيا ولا بنتا ٠

لم يعد هناك سوى آخر حل ، قلت أحملها الى الجنرال المثلج(*) وآخذ رأيه فى الموضوع وأطلب منه توقيعا على قراره ٠

●●●

(٦٠)

لما دخلت فناجين القهوة تقصدت أثناء الخروج أن أترك الباب دون ارتاج ، وأرهفت السمع من خلف الباب والنظر من الشق الصغير الذى أتاح لى رؤية رأس سيادة المدير ٠

بعد عرض المسألة عليه ، وكان مستغرقا فى الاستماع ، شفط سيجارة كاملة ، وقال : شو الأصول ؟

(*) الجنرال المثلج : لقب شاع بين موظفى الشركة للمدير العام ، فقد كان يذكر ان جده كان ضابطا فى جيش الانقاذ ، لذا كنا نسميه الجنرال ، ولان شركتنا تنتج اجهزة تتعلق بالتبريد ، كالمكيفات والمراوح والثلاجات فقد أضفنا عليه المثلج ٠

قال المهندس : الكشف ..

شفط نصف سيجارة جديدة ، وقال: اشرب القهوة .

ـ شربناها .

رن الجرس، دخلت أنفي من فرجة الباب فخاطبني:

ـ خذ القهوة ، وهات عصير .

بعد العصير نطق الجوهرة : شو اعتراضك على الوصل ؟

كرر المهندس القصة : الوصل مجرد تصريح باستلام المواد ، اذا تم تركيبها يصبح الصرف على الكشف . لا يمكن اجراء الحسميات ولا صرف أجرة التركيب على الوصل ، أضف أن الأسعار توضع على الكشف . مسكين المهندس عباس ، شربه برميل عصير ، وشفط نصف علبة تبغ مع ثلاثة فناجين قهوة ، وحدثه عن جزء من سيرة حياته بما فيها تاريخ جده ، وبعض القضايا المستعصية على الحل من أزمات عالمية وصولا الى مشاكل الشركة ، وصفن بقية الوقت ، حتى مرر وقت الدوام ..

رن الجرس .. دخلت ، كان يقول :

ـ كل شيء له نهاية أخي عباس الا الشغل ، انتهى الدوام .

ـ العمل عبادة يا سيادة المدير .

ــ عن اذنك أستاذ عباس.

ثم وجه الكلام لى :

ــ صطوف ، خذ الفناجين ، ثم إحمل الحقيبة الى السيارة .

اندهش المهندس من طريقة تملصه ، سرنا معا فى الممرات ، عاونه الأستاذ على رد تحيات الموظفين، هبطنا فى المصعد الى جواره ، وكأنه لا يرانا ، تهرب من المسئولية ووضعها فى رقبة المهندس .

دخل سيارته المصفوفة أمام مدخل بناء الادارة . بعد أن أوعز للسائق بالانصراف لأنه سيقود السيارة بنفسه .

أخيرا والجنرال المثلج خلف المقود ، مد المهندس عباس رأسه داخل السيارة من نافذتها ، أمسك المقود بيديه وخاطب المدير :

ــ سيادة المدير أرجوك ، كشف أم وصل ؟

قبل أن يخلفنا نتنفس دخان سيارته ، باض الديك درته النادرة .

قال وهو يبتسم :

ــ كشف ووصل .. ارفع كشفا ووصلا .. وصهل ضاحكا ، وصهلت سيارته ..

●●●

● حمص ــ شباط / ١٩٩١

● زيارة الجمعة ●

يوم الجمعة تزور سنية أهلها ، فاذا كنت خالى الأشغال أذهب معها ، واذا كنت مشغولا تأخذني معها .

وأهل سنية والدها الذى يدلف فى عامه الواحد والسبعين ، على حساب البطاقة الشخصية ، ويدخل أول عامه الستين على حد زعمه . أما كما أراه أنا ، فانه يهبط الى ابن أربعة عشر عاما على أبعد تقدير . قد لا تصدقون زعمى ، اذن قدروا عمر رجل دخلت عليه يوما ، فوجدته يفقش بأصابعه ويغنى :

كنت بزمانى سلطان زمانى
غدا غنلى الك هنونى ورمانى

وأهل سنية أخوها الموظف فى دائرة الآثار والمتاحف بعد ليسانس حقوق أمضى عشر سنوات فى دراسته . وهو رجل يكبر والده حسب تقديرى بعشرة

أيام ، وحسب سجلات النفوس يدخل في عامه الرابع والثلاثين .

أما بقية أهلها فقد خرجوا من الدار . فالأم خرجت من دار الفناء الى دار البقاء ، على طريق معهد بثلاثة أمراض مستعصية ، السكرى وداء المفاصل وطيبة القلب ، كما يردد عمي ، وهكذا في حملها على الآلة الحدباء أراحت واستراحت .

أختها سمية زوجوها خارج حدود البلد ، وبعد عامين عادت وهي تحمل صرة فيها ولد ابن عام ، وورقة ممهورة بأبغض الحلال عند الله . ولما استفقد رب العالمين صغيرها بالتهاب السحايا ، توافد العرسان على اعتبار انتشرت اشاعة في الحارة أنها حملت معها مؤخر الصداق بالعملة الصعبة ، مع أن الحقيقة هي الصعبة ، لأنها لم تحمل معها الا الصرة الراقدة الآن تحت أربع شطائح صغيرة . وكان نصيبها عند حمدو الأخوت ، اختارته من بين أربعة عرسان بعد دراسة تجربتها السابقة . أخوها حكمت الذى يعمل في ادارة المطاحن والحبوب ، تزوج وانفرد بعيدا عن البيت والحي . وهذا الأخير رأيته أول مرة يوم قراءة الفاتحة لعقد زواجى على سنية ، والثانية بآخر عيد أضحى ، بتربة باب الدريب وأيضا كان يقرأ الفاتحة على قبر المرحومة والدته ، لهذا لا أتخيله الا ويداه مفتوحتان ويقرأ الفاتحة .

آخر مرة صادفته في سرايا الحكومة يستخرج بيانا عائليا ، وكنت أنا بحاجة الى اخراج قيد نفوس لتقديم طلب لمسابقة معلمين أعلنتها سفارة قطر منذ فترة • ويومها قال ثلاث كلمات :

ـ كيفك صهري ؟ بخاطرك •

ورديت بكلمتين : الله معك •

هذه هي العائلة ، وأؤكد لكم أن الذي يلقبونه في الحارة طفل الأنابيب كناية عن صغر حجمه ، يكون عمي ••

وزفيقه في المسكن ، عاشق المصمودات الأثرية ، مع أنه طويل ورفيع ولا يشبه شيئا كما يشبه عمودا للكهرباء ، فانهم يطلقون عليه في الحارة لقب (أبو الآثار) ، وهذا أخو زوجتي ••

●●●

وبعد فنجان قهوة ، تنهض سنية الى أعمال البيت ، وينظر عمي بفارغ الصبر هذه اللحظة ليستفرد بي ويعيدلي قصة حياته ، بينما يجلس أبو الآثار في ركن الغرفة يتابع بشغف حكايات سمعها آلاف المرات ، ولا يطلق نفسا أو حرفا الا عندما يطلب والده المصادقة على الحديث ، فينبرى له بالموافقة السريعة أسرع من آخر صاروخ أمريكاني :

ـ اي والله بخضوري يا صهري ..

مع أن نصف تلك القصص أكبر من عمره ، ونصفها الآخر كان يفتتحها عمي بقوله : كنت وخدي بسوق الـ ..

واحدة من تلك الحكايات لا يفوت عمي مرة دون أن يلقيها على مسامعي ؛ وصرت أصحح له بعض ما يخطىء فيه ، وأذكره ببعض ما يفوته منها ، وكان يبدأها بقوله :

●●●

سنة السبع وخمسين قبل الوحدة مع عبد الناصر بسنة ، كان الولد الذي بجانبك بعبع ببطن أمه ، كنت أبيع ثياب بالة بسوق العتيق ، اشتريها من بالة أبو فريد بآخر زقاق بباب هود ، أو يأخذني واحد من أكابرية المحطة ، ويبيعني كومة ثياب وأحذية وخردة غيرها ببضع فرنكات بعدما استهلكها أو بطلت موضتها ، ويشتريها مساكين بلادنا خاصة عمال المدينة وفلاحو الريف لهم أو لأولادهم بعد أن يوهموهم أنها :

ـ من واجهة أشيك محل بالدبلان .

يومها كانت بالة أبو فريد مغلقة لتصليحات تجريها البلدية في منجارين الزقاق الواقعة فيه بالته .. ذهبت إلى السوق ؛ كنا نفرش البضاعة قدام مدخل الجامع النوري الكبير ، في مكان سوق التهذيب اليوم .

آخر كل نهار كنت أودع البضاعة الباقية عند الحاج أبو فهمي ، وما كان باقى يومها غير تفريعة نسوانية ، وسترة خمرية .

توقفت عن الكلام ، جلس ظهرة ، تطلع نحوى بعيون دبلانة ، شفته السفلى هادلة على جهة واحدة ، وذقنه طويلة بيضاء بنت أسبوع ، هز رأسه ، مد يده تحت فراش الأسفنج ، أخرج علبة تبغ عربي مفضفضة أعرفها معه منذ عرفته ، والقداحة أم الفتيلة الخمرية . لف سيجارة أتخمها بالتبغ وهو يرنح رأسه ، التفت نحوى وقال :

ـ خذ لفلك بوريه ..

ـ شكرا ، تعرف عمي لا أدخن .

أخذ يشعل لفافته بقداحة الفتيل ، ويتمتم عني :

مضيع عمرك بقراءة الجرائد والكتب ، بحلقة دائمة بالورق الأبيض والأصفر ودفاتر التحضير ، حرام .. يكفيك عذاب أولاد المدرسة وحياتك .. لا دخان ولا .. ضربة تقرف هذا العمر .

قلت : عمي ، دعنا في السترة ، لمن بعتها ؟

عب من سيجارته ، ونفخ الدخان والسعال ، وعاد من جديد الى حكايته .

وضعت التفريعة على ساعدى الشمال ، والسترة نشرتها على أكتافي ، وصرت أصيح : سترة للأبهة وتفريعة حريمي ..

فتلت السوق عشرين مرة ، صارت الشمس مثل سيخ النار على الرأس ولا ابن حلال سأل شو معك ؟ بغير أيام كنت أبيع تسع ، عشر قطع وما توصل الساعة عشرة ، صحيح يا ولد ؟

وأبو الآثار جاهز لهذه اللحظة :

ـ وما توصل تسعة ، وحياة صهرى

ولأني صرت داخل اللعبة أقول :

ـ صادق ولد العم ، أكمل عمى ، أكمل ..

الحقيقة أننى كنت أتحرقص من سماع هذه القصة ، وأسمعها مرغما بانتظار أن يختمها عمى .. والذى يتابع :

بعد ما مليت وقلت اليوم ما فيه رزقه ، توكل على الله يا أبو حكمت وتيسر لعند حرمتك وأولادك ، طلع بوجهى فلاح عجوز راسم الزمن على وجهه شوارع من التعب ، لابس جلابية تربية مجعدة خادمة عنده من أيام السفر برلك ، تحتها ياقة قميص سكرى ما شمت المكواة رائحتها من يوم ما اشتراها ، والجلابية مضمومة عند الخصر بزنار كمر عريض بنى من النوع الذى يلبسه البدو ، وينتعل مداسا عتيقا أسود .

كان يمسك بيد سلة قصب ، وباليد الثانية راوى غوما(*) .

بادرني : الله يعطيك العافية يا ابني . ووضع الراوى على الأرض بجانب السلة . ومن دون أن ينتظر ردى على السلام قال :

ــ بشقد الجاكيت ؟ وأخذها عن كتفي ، مد يده في كمها ، واليد الثانية في كمها الآخر ، كان قد ارتداها قبل ما أجاوبه ، وصار ينظر الى نفسه ويتلمس قماشها بيده . قلت :

ــ بليرة سورى، وكرمى لشيبتك بثلاثة أرباع ..

مد يده الى زر الكمر ، فتحه وأخرج منه ربع ليرة ، وعشر قروش ، وقال :

ــ طلعت من الضيعة وبالسلة ديك رومي وزيفة بياضة وعشرين بيضة ، بسطت فيهم بسوق الحشيش .. اشتريت للبقرة صبحه رسن مخطط طوله عشر دراعات، واشتريت لأم محمود أوقية خميرة ، ومنديل أحمر ، ومطاط لبنيسة الصغيرة ، وبخور لنبخر القمر أول رمضان بعد أسبوع . وشحاط لعزيز الله يعز مقدارك، وصلحت الراوى كان مشروم من رقبته ..

(*) راوى غوما : وعاء كبير يستخدم لنقل الماء على الدواب في الريف .

واشتريت نص قفة تمر للأولاد ، ودعتها بالكاراج .. وأكلت فطيرة من عنـد السـلقيني .. وبقي معي يا مرجوم البي ربع ليرة أعطيها لهاشم البويدر سـائق البوسطة أجرة طريق ، وعشر قروش للجـاكت ، بقي شو قلت ؟

ـ قلت مبروكة بلا مصاري ..

وما صدق قلت الكلمة رجع فراطته على الكمر . حمل أغراضه وشد بالسترة ..

ناديت عليه ما رد ، ركضت خلفه ، أمسكت به من رمانة كتفه وأدرته نحوي وخاطبته : وين مستعجل ؟

ـ على الضيعة ، مستعجل لألحق البوسطة ، قبـل ما يشدّ فيها هاشم البويدر .

ـ وثمن السترة ؟

استغرب ، يحلق بوجهي وقال : انت ما قبلت .

ـ لا أقصد الفلوس ، أدع لنا ياعم بالتوفيق ..

وضع سلته على الأرض وفوقها الراوي ، وفتح كفيه وطلع للأعلى ..

وقال : الله يوفقك ، ويأخذ بيدك ، ويخلي اولادك ، ويكبر شأنك ، بجاه واحد أحد .

قلت : قبضنا ، وهذه التفريمة هدية لأم محمود

تناول التفريغة من يدي ، وصار يفحصها ويقلبها ، بعدها ضحك وتمتم بصوت خفيض :

(والله عمرها ما بتلمس جلدها . مبلى خلوة لبنتي منيفة) وضع التفريغة فوق الأغراض بالسلة ، واستدار للقبلة وقال : ربي ، مولاي ، يوفقك يا ابني ، ويبعد عنك أولاد الحرام ، بخاطرك .. ومشى بالخطوة السريعة باتجاه الساعة العتيقة ، وراقبته حتى وصل أمام سينما الفردوس ، عرفتها عمي . كانت محل الحديقة ، كان صاحبها نادر الأتاسي ، كانت أفلامها متواصلة ، والفئران فيها أكثر من البني آدمين ، هدموها قبل أن يهدموا حي الأربعين بزمان .. سمعت خلال أيام سيهدمون سوق الفيصل ، والمحلات من عند محل (فلافل الملك) لعند سينما الأوبرا ، لن يخلوا حجرا على حجر فيها ..

ــ عمي أترك الهدم للمحافظة والبلدية ، وخليك بالفلاح ..

ــ لك عمي الهدم سهل ، العمار صعب .. الفلاح طلع على صور الواجهة ، ما عجبته ، وأظن استغفر ربه قبل ما يكمل طريقه باتجاه كاراج طرابلس .

●●●

مرة في احدى الزيارات كان أبو الآثار غير موجود ، سألت عمي عنه ، فقال :

.. الأستاذ ذهب الى تل المشرفة ، تعترف هوسه بالأنتيكات ، سمع ببعثة فرنجية جاى تبحث بآثار المشرفة ، قال كانت المشرفة (مملكة قطنا !) أنا أعرف من زمان أنه بالمشرفة القديمة تمثال للنبي لوط ، وحولها سور كبير ، أما قطنا طول عمرى أعرف أنها غرب الشام ، معقول يكونوا سحبوها لشرق حمص على المشرفة ٠٠ وأطلق ضحكة جلجلت أركان الغرفة ٠٠

قلت : عمي قطنا المشرفة ، غير قطنا الشام ٠٠

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، كل كم يوم ، يضحكون على عقله بالمصلحة ، ويسوح بالبلاد، من ببيلا (يقصد ايبلا) لعفريت (عمريت) للمشرفة ٠ يأتيني آخرليل ، حامل كيس وعيونه تبص من الفرح ، يفرش كنوزه ، أحجار بأحجام مختلفة ، أصنام مكسرة ، كسيرات من جرار فخارية ، مرة ضحكوا عليه وباعوه فم جرة بألف ليرة ، مع أن أكبر جرة بفاخورة باب الدريب ثمنها ربع المبلغ ٠

تخيل ابن عبد الرحمن البالاتي ، صارت سيرته مع الأنتيكا على كل لسان بباب السباع ٠٠

●●●

ولا يزال عمي في كل زيارة جمعة يحكي لي قصصه ، ولا يزال أبو الآثار يصادق له على كل ما يقول

•• حتى أن عمي في آخر مرة روى لي أنه لما أعلنوا الوحدة مع مصر سنة ثمان وخمسين فرق حلوى بخمسين ليرة على البشر ، وسط السوق كرمى لـ عيون الوحدة وعيون خيالها عبد الناصر ، واستدار نحو ابنه ، ومن دون ما يسأله ، قال :

ـ فرق حلوى بسبعين ليرة ، وأنا كنت معه •• ؟!

●●●

● حمص ـ حزيران / ١٩٩١

● ولا زالوا يلعبون الورق ●

مبـاغتنا كقنبلة تلقى من خلف أجمـة ، تشـظى الوقت ، تناثرت الدقائق والثوانى ٠٠ عليه أن يلمه والا قتله دون رحمة ٠٠

وقت للعمـل ، وقت للسـوق ، لجمع الحاجيـات والخضار والسلع ، الوقوف فى أدوار لا تنتهى ٠٠٠ وقت للأطفـال وآخر للزوجة ، للأهل والأصـدقاء ، للمتاعب الجديدة والمفاجئة ٠٠

للقراءة والمشاوير والكتابة اذا حضر الوحى ٠٠

تشظى الوقت ٠٠ عليه جمعه كى لا يمحى وسـط هذا الحصار أو يضيع ٠٠ ذاهلا رتب خططا لا تخطـر على بال ٠ احتمالات كثيرة ، استخدم مخططات ويليوت مـور ــ ، مخططات شـبكية ــ عقـدية★ ــ برمجة ــ كومبيوتر ــ ٠٠

(*) طرق تستخدم لتنظيم الوقت فى المشاريع الهندسية الكبيرة ٠

والوقت ابن عاهرة لا يرحم ..

جند كل ما بوسعه ، وفشل فى القبض على الوقت باحكام ، ظل ينزلق من بين الأصابع كالزئبق ..

كان عنيدا .. الزمن والضياعات والدم وقاذورات الشوارع ، الزمن السىء كسر رأس عناده ، حطمه .. الآن يرفع الراية البيضاء برغم انه يحاول ألا يراه الآخرون ، يحاول ستر الهزيمة ..

هذه المرة ضرب عنقه بالموسى الحادة ، انفصل الرأس عن الجسد تدحرج واستقر عند الحذاء ، ظلت عيناه مفتوحتان تحدقان فى الحذاء الذى فى زحمة أوقاته ما تبقى منه ما يكفى ليركب له نصف نعل .. وها هى العيون التى لا تبكى ، مفتوحة وتنزف .. دما .

●●●

كان الكمد النارى الذى يغيب داخل التفاصيل الباردة يأكل من جسده قطعة ، قطعة .. أما روحه والتى كانت تحلق مع معزوفة أو مسرحية وترقص لعمل أدبى مدهش ، بدأت تهتز ، وتستحيل الرقصة الى مشية عرجاء .. فى لحظات تعبق فيها الروح بالفرح كان يعيد تركيب الجسد بقوة وتنبعث الرقصة بكل ألقها ، تتقد جذوة الشباب شعلة انتصار تحرق الهزيمة .

رويدا رويدا تشح ذبالة الشعلة وتنكسر الرقصة .

●●●

كان الآن يخرج من ملكوت الدار الذى يشاطره سكنه جيران من بلد بعيد .. وكانوا على عادتهم يلعبون بالورق مع ضيوف لا تغيب أذنابهم حتى تبان رءوسهم . فقعت فى أذنه من بين قهقهاتهم الصاخبة كلمة « الكونكان » لا يدرى كيف تحولت فى رأسه وهو يطبق الباب الخارجى الى «كانكان» .. كيف طغى على ذهنه مشهد (رشيق الحركة)(*) وهو يضع اجمل ضفدعة فى العالم داخل جيب سترة صديقه الذى مات مرتين السيد كانكان العوام ..

تبددت صورة الجيران وحياتهم الخاوية ، وقفزت الضفدعة من الرأس . نسمة أول المساء طبعت على خده قبلة استحالت الى ابتسامة تحولت الى دندنة على الشفاة : يا محلا ليالى الهوى .. يمضى باتجاه المكان الذى واعد الأصدقاء على لقياهم به . منذ زمن بعيد لم يرهم ، سوف تسعده لمة الأصدقاء التى رتبها قيس بعد كل هذه السنوات ..

صور الأصدقاء تتقافز فى المخيلة (ممدوح سوف يستقبلنا بدعاباته ، غسان بقصائده ، طريف بأوجاعه التى لا تنتهى ، وقيس بمغامراته فى بلاد الغربة التى انتهت بعودته ..)

(*) رشيق الحركة : احد شخصيات رواية (كانكان العوام الذى مات مرتين) للاديب البرازيلى : جروج امادو .

.. نهب الخطوات سريعا ، قام واستقل سيارة أجرة
.. هبط عند طرف المدينــة ، دخـل المقهى القـديم ،
فاجأته طاولة الأيام الخوالى بخوائها من الصخب والحياة ،
كان قيس وحيدا حولها ، يتأمل مياه النهر التى تسـير
رقراقة وجميلة قبل أن تختلط بها قذارات المدينة ..

عزى نفسه أنه لايزال متسع من الوقت ، غير أن
قيسا أطلق عبارة اغتالت أحلام النهار بلقاء الأصدقاء :

ـ اعتذروا بعد الظهر .

ـ لمــاذا ؟

ـ انه الوقت يا صاحبى ..

●●●

الليل السجادة المفروشة فوق السويعات السوداء ،
تلتم رويدا رويدا ، تلف وتلقى عن كتف الفجر الذى
بدأ يسيطر بنوره الأبيض ، قطرات الندى التى تكشفت
فوق وريقات النباتات الخضر بدأت تتساقط ، هرولت
ساعات الصباح الأولى .. صعدت الشمس إلى سـمتها
العالى وشعت بالوهج الحار . النسمات المهزومة وسط
النهار عادت بعيد العصر للظهور ونشطت فى الغــروب
حيث بدأت جموع البشر بالمشى على طرف البحر ...

السفن عادت لاضاءة مصابيحها ، ونجوم السماء وضحت نجمة بعد نجمة ، والسجادة السوداء فرشت من جديد ..

ولازال بعد يوم كامل يحس بالفاجعة والخيبة لاغتيال اللقاء ..

●●●

دخل الدار متأخرا ، يحمل حاجيات الأطفال من دفاتر وأقلام وثياب و ..

أفاقت الزوجة ، تناولت حمولة الزوج ، قرأت فوق ورق غلاف الحاجيات عبارات خطها في حافلة النقل :

الليل ، استراحة البشر الذين يمضون النهار في التعب ..

البحر ، سمكة قرش آخر نهار لم تعش فيه على قوت ..

المدينة أم حنون .. تنقلب أحيانا الى امرأة عاهرة لا تهتم الا بشهواتها وجسدها .

قال مبتسما للمرأة وهي تقرأ آخر الكلمات : خرفنا يا امرأة ..

وقالت مازحة : من زمان ..

آخر الليـــل كان يفكر ويكتب .. بينما الجـيران لازالوا يلعبون الورق ..

●●●

قفر ، جفاف ، أرض بدأت بالتصحر . أيما خواء يسكن رءوسهم .

هي الـــرءوس المتعفنة التي لا يمـــكن أن تصـــحو الا بالصفع ... قد أكون تعودتهم ، لكن من المستحيل الاندماج معهم ، والانغماس أكثر في حياتهم دون قلق أو قرف .. المشكلة أنهم لا يبيحون لك صفعهم ولا حتى تقبيلهم . يصمون آذانهم عن كلمـــاتك ، ويشـــيحون بوجوههم عن تلمس أحلامك ..

يقولون : الحياة شطارة ولعب .. وتجارة .

●●●

بالرغم من أنه حاول تقويض صحارى الكآبة من ذاته ، وشهد انتصاره عليها أحيانا ، غير أنها بين فينة وأخرى تعود الى مواقعها ، تتناسل وتتـــكاثر وتشـــهر أسلحتها في وجهه ..

لكنه كتب في دفتره : لن أخسر الحرب .

●●●

سطوة الليل ، المرأة التى تحتل الذاكرة ، المرأة التى تحتل الواقع ‥ وأنت تنوس بين الذكرى التى مضت بكل رومانسيتك وخيالاتك وبين المرأة التى تقتسم معك نصف الفراش ، ونصف الوسادة ‥

سطوة الليل ، العتمة التى تبرقشها النقاط المضيئة ، كل نقطة ينطلق منها ضوء ، اشعاع صغير الى رأسك ، ينقلك الى زمن مر ‥ الى حلم تبعثر وتلاشى ‥ الى أمنية تحققت بالسهر والتعب ‥

بين ما أغتيل ، وبين ما ولد خديجا ، وبين ما تفجرت الحياة بقوة فى أجزائه التى تعاضدت لتشكل بنيانا تشاهب ، وأنار من حولك الضوء ، كى ترقص ظلالك معك على الجدران المجاورة ‥

بين الأجزاء الثلاثة تتمدد جثة ، وتقول دون خوف انها الحياة ‥ وتشير بأصابعك : انها جثتى ‥

●●●

والوقت يمضى كخناق الدفتريا ‥

قريبا يبزغ الفجر ، ولا زالوا يلعبون الورق !

●●●

● حمص / ١٩٨٩

● بعد التاسعة مساء ●

انهمرت الحجارة على زجاج النافذة ، تشظى الزجاج داخل الصالون ، ذعرت أم العيال ، انتفض الطفل الصغير من جديد ، وعلا صراخه ، بينما ركضت باتجاه الدرج ، وهبطت الى الباب الخارجي ، وفي لحظات كنت في الشارع ..

لم أر أحدا ، وصلت الى فم الحارة ، عكست الاتجاه الى الطرف الآخر لم يكن هناك أى أثر لمخلوق .. شتمت وصرخت دون أن أدرى لمن أوجه شتائمي . ثم عدت مغتاظا الى البيت ، أغمغم كلمات بلا معنى فهمت منها المرأة التي استقبلتني في عتبة البيت أنني فشلت باللحاق بضارب الحجر .. نظرت نحوى بابتسامة ساخرة ، عيناها توجهان اتهامات شتى لقدراتي الجسدية ، ويشوبهما فزع حقيقي لهذا الذى يحدث..

.. هى المرة الثانية خلال أسبوع ، انتظروا حتى أصلحنا النافذة وجهزناها بزجاج جديد .. في المرة

على الطفل الصغير الذى مرض فجأة ، ارتفعت حرارته ، وبدأ يرتعش ويصرخ ويبول في ثيابه ، ويهذى بكلمات الأولى ، كنا قد ودعنا قريبنا الطبيب للتو بعد أن كشف غريبـــة ..

في البداية لم نفهم ما يهذى به ، فيما بعد وأنا وأمه نتناقله بين أحضاننا ونقبله ، تبينا بعض الكلمـــات : « حرام .. حرام » .

« عم يضربوا الصـــغار بالبـــواريد » ، « حجارة وبواريد .. »

استطعنا الوصول فى النهاية الى أن العيـــاء مرده لمشاهدة الطفل لأخبار الانتفاضة فى جهـــاز التلفزة ، الأولاد بحجارتهم ، الجنود الصهاينة ببنادقهم ، اطلاق النار ، القنابل الدخانيـــة ، ضرب الأولاد بالهـــراوات ومؤخرات البنادق .. أكد الطبيب نتيجتنا ، ان توعك الطفل ناتج عن الخوف والذعر ، والتأثر بمنظر الأطفال الصغار وهم يضربون بالهراوات كما لو أنه يخشى أن يصله الدور !

وصف الطبيب أدوية عـــديدة وطلب أن نجنب الطفل رؤية تلك المناظر التي ترد في الأخبار ..

ما ان هبط الطبيب وغادرت سيارته الشارع حتى إنهمرت الحجارة على النافذة ، تحطم الزجاج .. ركضت الى الشرفة فوجئت بخلو الشارع من البشر .. هبطت

الى الأسفل سألت الجيران ، حاولت اكتشاف الفاعل دون جدوى . كانت تلك أول مرة ، ثم ها هى تتكرر .. وها الطفل ينتفض وينتكس من جديد ، يصرخ :

« بابا ، جاءوا .. يريدون قتلي .. اضربهم يا بابا .. اضربهم » .

حملت الطفل ، قبلته ، خاطبته : « لا تخف أنا معك .. لا أحد يجرؤ على لمسك وأنا موجود .. »

آخر الليل ورأسى يرقد فوق الوسادة دون أن ينام ، كنت أفكر بالحجارة التى ترجمنا ، مصدرها ..

توصلت ببساطة الى أنه ليس لنا أعداء فى الحارة ، ذلك اننا كنا سكانا جدد فيها لم نكمل الشهر بعد ، ومهما كنا سيئين فان هذه المدة غير كافية لخلق أعداء لنا .. كانت المسألة صعبة ، فى غاية الصعوبة ، المرأة تمتمت :

(حارة والعياذ بالله ..) مازحتها وأنا مكدور :

(حارة مثل العسل ، هؤلاء الفلسطينيون عشرتهم عسل ..) .

(والحجارة !) قلت (عم يرسموا فيها وطن)

(لا أقصد فى الأرض المحتلة .. أقصد الحجارة التى تنهمر على بيتنا) .

(يباركون لنا بالسكن على طريقتهم) ..

علقت : (هه !)

أخيرا قلت : (يا امرأة أغلب الظن أن ثمة علاقة بين الحجارة والساكن القديم ، أو صاحب البناء ..)

عندما قالت : (حنا ويش ذنبنا ، حتى يوخدوا تارهم منا)

فقمتها ضحكة وعلقت :

(أسبوعا آخر فى مخيم اليرموك وتصبحين فلسطينية خالصة ...)

.. أخيرا قررت مراقبة الشارع كل يوم فى المساء . مر يوم ، اثنان ، ثلاثة ، أسبوع ، لم يرم حجر باتجاهنا ، وكان كل شيء عاديا .. عدا مجموعة أطفال تمر يوميا بعيد التاسعة بقليل ، يمرون بهدوء ، يعبرون الشارع دون أن يفعلوا شيئا ، كنت أرقبهم كل يوم فى نفس الموعد وأنا أقف خلف النافذة ..

أخيرا خطرت لى فكرة ، قررت تنفيذها فى اليوم التالى ..

قبيل التاسعة أطفأت أنوار البيت ، أوصيت زوجتى ألا تنيرها ..

هبطت الى الشارع ، واختبأت خلف سيارة الجيران.

في موعدهم جاء الأولاد ولكن ٠٠ لكن هذه المرة توقفوا قبل الوصول الى محاذاة البنـــاء ، تهامســـوا ثم توزعوا في عدة أماكن ، بعد أن تناول كل منهم حصته من كيس يحمله كبيرهم ٠٠ وقبل أن تبدأ عملية قذف الحجارة بالأيدى والمقاليع ، ركضت باتجاههم ٠٠

صرخ أحدهم « أبو حمدو ٠٠٠ شدوا يا شباب » وركضوا بسرعة ٠

استطعت في نهاية الشارع اللحاق بأحدهم والذى تعثر بعلبة تنك فارغة ٠٠ كدت أهم بضربه ، تراجعت في اللحظة الأخيرة ، سحبته من يده وأنا أسأله :

« لماذا تقذفون الحجارة الى بيتنا ؟ » واستدركت :

« ثم من هو / أبو حمـــدو / ؟ » كان الـــولد قد استعاد هدوءه ، وعادت أنفاسه للانتظام ، بدا لى أنه غير خائف ، بل انه كان ينظر نحوى بعبوس وجراة ، عيناه مفتوحتان على آخرها بتحد ٠٠

صمت ، لم يجب على السؤال ٠

« ابن من انت ؟ » واصل تحديه قائلا « ابن أبى »

كدت أن أستنفد أعصابى وهدوئى ٠٠ شددت على يده بقسوة وصرخت :

« لماذا تضربون الحجارة على بيتنا ؟ »

هذه المرة أجاب : « لأنك كلب يا أبا حمدو » .

صفعته .. فحاول التخلص منى بحركات من قدميه ويديه ، وكاد أن يفلت .. تماسكت ، تذكرت أننى لست أبا حمدو .. واننى أدعى أبو ياسر ..

« لا يوجد فى البناء كله رجل بهذا الاسم .. أنا أبو ياسر .. »

« مروان قال : انه بيته .. » قلت : « ولماذا ترجمونه بالحجارة ؟ » .

« لأن مروان قال انه يستاهل أن يكون هدفا .. »

بمحاورة الطفل تبين لى أن الأولاد كانوا يتدربون على قذف الحجارة ، الأولاد الفلسطينيون فى الشتات يتدربون على الرمى ، حتى تسنح لهم الفرصة أن يرموها داخل الأرض المحتلة ، على الصهاينة ..

هكذا شرح الطفل الصغير القضية .. اجتمعوا ، قرروا التدرب على أهداف حقيقية ، قائدهم مروان أحضر أسماء عدد من البيوت اعتبرها تستحق الرجم لأسباب مختلفة ، أبو حمدو كان الساكن القديم فى البيت .. أوضحت للطفل أننى ساكن جديد ، وأن أبا حمدو رحل منذ شهر ولا أدرى الى أين ؟

حينذاك حين علم الطفل بذلك ، خفض بصره ، تلعثم بكلمات الاعتذار التى نطقها بخجل ..

قبل أن ينصرف اعتذرت له عن قسوتي ، أمسكت بحجر وناولته اياه ، خطوت عدة خطوات ، توقفت ..

ثم طلبت منه أن يعتبرني هدفا ، ويقذفني ... بحجر ..

●●●

● دمشق / ١٩٨٨

• سـوق النخاسـين •

ناولني مفتاحا صغيرا ، وقال : بثاني درج أسفل الكومدينه فيه زجاجة هاتها ، وهات معك كاسين وأبريق ماء وثلج ، وتعال لنخدش الآداب العامة بباب السباع •

فقعتها ضحكة وقلت : أول مرة أعرف أنك ••

قاطعني : أسـكت يا ولد ، يلعنـك ، بلة ريـق بالمناسبات الكبيرة وبس ••

قلت لحالي : (سيرة عازف بزق، مناسبة كبيرة ، الله أعلم ما وراءها ؟)

شفط نصف سيجارة ، ومع أول شفطة من القدح ، احمر وجهه وصار يسعل بشكل متلاحق ، ركضت ابنته هنية ، ولما اكتشفت فعلتنا لجمتها المفاجأة على الباب ، أوقف خالي سعاله بقدرة عجيبة ، ورمقها بنظرة قوية شعرت أن عينـاه خرجتـا من محجريهما وصـفعتاها ، فأدارتها من جديد الى أعمالها في المطبخ •

رشف خالى غبة جديدة ونطق :

ولا تحسبن المجد زقا و قينة
ما المجد الا السيف والفتكة البكر

وضحك قبل أن يعلق :

ـ يا أستاذ ، بذمتك سمعت بقصيد (أبو المتنبى) هذا ؟

ضحكت من كل قلبي وجاوبته :

ـ لا والله خالى ، سمعت بقصيد ابنه فقط ..

مع لقافة التبغ ، ضرب طرف المشرب على حرف صحن السجائر ، نظف المشرب ، نفخ فيه بكامل طاقته ، رشف نصف قدح العرق ، وكما لو أنه عاد الى شبابه انبرى يكمل :

تعرفت عليها قبل ما أعرف المرحومة طيب الله ثراها .. كنت أول عهدى بشغل النحاس ، شاب مثل النمر ابن خمس وعشرين سنة ، غيرت الأفترول ، ارتديت شروالا وصدرية وحطة وكندرجيتى على جنبى ، أغلقت المحل ، كنت أودع جارى خدو لما انزرع قدامى عجوز حالته أنحس من حالتى اليوم ، وخلفه غزالة مضيعة شبابها بثياب سود ، أشار العجوز باصبعه نحوى وقال : هذا ..

واندار باتجاه الغرب ، وغاب بالزحمة ..

قلت : آخر الشليتة مدرى بشو بلانى ؟ .

(بلانى هـ الدهن بهوى   كلـه أسى ومـاله دوا
غـدر الـزمان بحـالى   سهرنى طول الليـالى)

مطلع قصـيدة كتبتها عن جمـول ، وكنت أغنيها لامرأة خالك كل يوم ، ومن طيبة قلبها كانت تظن أنى أغنيهـا فتجن من فرحتهـا . طلبت مرة من محمـد عبد الكريم يلحنها ، ما حن ، تحجج انها ركيكة ومرة الحيت عليـه فقال : أنا لأم كلثـوم ما لحنت الا بالف ياويلاه ، للحن لواحد صبى نحاس من باب السباع .. قال سموه أمير وهو نورى وكبير عليه أصله .. والله يا خال لولا ما لحن (يا سمره محلاك) وكنت أرقص على عزفه للحنها مثل المجنون ، كنت أنوى طرقه عـلى صاج نحاس ، وأبسط حردبته على الزيبق ، لكن لحن السمرة شفع له ، بذمتك يا ابن المدارس كيف القافية والوزن ؟

قلت : محمـد عبـد الكريم يا خال كان عبقـرى موسيقا ، اخترع مقاما جـديدا أسـماه (المريوما) ، بلا مؤاخذة مقامه كبير رغم صغر حجمه ، ورأيى يا خال تخلينا عند جمول وتترك الشعر لـ (أبو المتنبى) .

حدجنى بنظرة خفت يترجمها الى طرق نحاس ، فتنبق لظهرى حردبة أمير البرق ..

خفض بصره ، ودلق من القدح فى جوفه ، وعاد ليتابع : أول ما قربت المرأة نحوى وقبل ما تفتح فمها قلت لها :

ــ مو أنا وخياتك ٠٠

ابتسمت ، وسيطرت على حالها وسألتنى :

ــ مو انت صياح النحاس ؟

ــ أنا ابن أخيه ، أمر يا ست ؟

ــ عندى مجمــوعة نحاسـيات ، أوانى وتماثيــل ولوحات ، أريد ترميمها ٠٠

ــ توكلنا على الرزاق ، أين ؟

ــ تعال معى ٠٠

رسمت أول خطوة باتجاه بستان الديوان ٠٠ كان صوت الراديو يملأ الشوارع (وحده ما يغلبها غلاب٠)

قالت :

ــ يا الله ما أجمل أغانى الوحدة ، وصارت تردد مع الأغنية :

يبارْكها ٠٠ وحدة أحباب ٠٠

غابت الأغنية لما دخلت فى دار ، فسحته كلها زهر ورود ، صحن رخام ، وباب خشبى حفر ، آية جمال ٠٠

وبناء على طلبها حملت سلما من الفسخة ونزلت من مخزن السقيفة ثلاثة صناديق خشب كبيرة وثقيلة ، دخلت الست على غرفة ، وأخرجت منها حقيبة جلدية ، فتحتها وأخرجت منها لوحة نحاسية ملفوفة بقماش حرير ·· وأعادتها الى داخل الحقيبة بدون ما أعرف محتواها ·

أخرجت قطع النحاس وفردت المحتويات على رخام الفسحة ، فوانيس ، أباريق عليها رسوم نباتات وطيور، زهريات ، تماثيل بشر وحيوانات ، ولوحات ، ··· سحر وفن ···

كانت أغلبها بحالة ممتازة ، كأنها خرجت للتو من تحت يدى الصانع ·

كنز حقيقي ما كنت أتوقعه ··

سألتها : والحقيبة ؟

قالت بنبر : هذه كاملة ·· وقفت على طولها ، ودخلت بالحقيبة الى الغرفة · نادتني الى عندها ، كانت في غرفة نوم فخمة ، فوجئت بها تبكي بغزارة ، دموعها على خدودها مثل نهر العاصي ، رفعت لها الأغراض التي وقعت من فوق الخزانة عندما أحضرت الحقيبة ، التي وضعتها في أحد الأدراج · كانت دموعها تهطل وتنشف وتهطل و ·· كيف تطورت الأمور ، لا أدرى ! وجدت

نفسي يا خال جالسا على طرف السرير وجمول الى جانبي تسند رأسها على كتفي وتبكي ، وأنا أربت على كتفها بيدى ، من بين دموعها وغصاتها تحكي لي عن وفاة زوجها قبل شهرين بحادث سيارة على طريق طرابلس ــ حمص ، حيث كان في سفرة عمل لشراء مجموعة من ماكينات الخياطة للمحل الذى يملكه ‥ أما النحاسيات فكانت هواية فنان في أوقات الفراغ ٠

كانت نحاسياته التى تركها تعذبها ، تسبب لها الكثير من الألم ، لأنها مشروع حب لم يكتمل مثل حياتها ٠ كل قطعة تنقصها لمسة وتكتمل ، الأباريق بحاجة الى أذنين ، الفانوس الى علاقة ، الزهريات الى تتمة تزيينات ، تماثيل البشر الى أطراف وتفاصيل ‥

قاطعته : كيف وصلت جمول الى المحل خال ؟

ــ سمعت بعمي ، مطوع النحاس الأول في المدينة ، كانت تريده أن يتمم لها المشروع ‥ المشروع الذى يجب أن يكتمل ‥ تحكي وتبكي ‥ صرت أبكي معها ‥ وقلت لنفسي خطي كانت عروس لمدة عام واحد ، حتي حملها خسرته على أثر الصدمة ‥

صرت أمسد لها شعرها ، رجعت للخلف ، خفت ألا تعود للاتكاء على ، قلت لها : خسارة ، الرجال والله ينبكى عليه ليوم القيامة ٠

لكنها لم تستجب لدعوة البكاء ، بل طلبت مني أن أعيد الكنز الى الصناديق ، ثم الى مكانها في المخزن ٠ وقالت :

ــ فكرت مرة أبيعهم ، ووجدت أنني غلطانة ٠٠ فكرت اليوم أعطيك اياهم تكملهم مع عملك ، ووجدت أنني غلطانة ، لكل مشروع فن صاحبه ٠٠ هذا روح ، مو نحاس وزخارف ٠٠

وطلبت مني المغادرة ، وتأسفت لي ، وأذعنت ، خرجت من دون أن أقول كلمة واحدة ٠

ــ خالي ، صب قدحا جديدا ، صب ٠٠

ــ كأس واحدة تكفي ، من أجل صحتك ٠٠

ــ صب يا ولد ، صحتي أحسن من صحتك ٠٠

ومثلما أذعن خالي في الخروج من عند جمول ، أذعنت له في صب قدح جديدة ٠٠

لف من علبته سيجارة ، أشعلها ، وعب من قدحه عبة ، وعاد يتابع :

ــ مرت ثلاثة أشهر ، ما مر فيهم يوم وما حلمت بجمول تبكي على كتفي ، أو تجيء لتأخذني من السوق لأشتري كنزها أو أكمله ٠٠ أحيانا كنت أتوهم أنها دخلت في أول السوق باتجاه ، محلنا ، أترك العمل

وأقف أمام البـاب أنتظرها .. أنتظـرها غير عابىء بتقريظات وشتائم عمى للعودة الى العمـل ، ولكنهـا لا تجىء ..

ثلاثة أشهر وخمسة أيام وعمى فى صـلاة المغرب رأيتها أمامى فى المحل .. صالبت بوكارين على باب المحل الذى تركته مفتوحا ورحت معها ..

شربتني فنجان قهوة ، نزلت الصناديق وأعدتها الى مكانها ، وندبت على كتفي ، ومسـدتها من فوق لتحت حتي صارت تشهق بدل ما تبكي ، ولما حاولت انتزاع سترتها لتبكي براحة أكبر ، قامت على طولها ، وطلبت منى المغادرة .. وغادرت ..

توقف خالى عن حديثه ، مج بقية لفافته ، شـف آخر قطرة في قدحه ، وصاح على هنيـة أن تحضر له حرامات النوم ، صـار وجهـه يختقن بحمـرة خفيفة وعيناه أكثر بروزا ونظرته تهوم فوق الجدران ..

رفع الحرامات فوق جسـده حتى العنق . وأخـذ يردد بصوت خفيض :

أنا واقف فوق الأهـرام وقدامى بساتين الشام
وحده . ما يغلبها غلاب يباركها .. وحدة أحباب

ثم أغمض عيناه .. وعلا صوت تنفسه .. انتظرت

عدة دقائق لعله يتابع قصتـه ، لكنـه لم يفعل ·· حين فتحت الباب أهم بالمغادرة جاءني صوته :

ــ يا خال مر غدا الى عندى في السوق ··

●●●

سوق النحاسين بعد الظهر ، يكون هادئا ، لا تخدشه أصوات المطارق ·· ويمكن أن تنشغل بتمعن تفاصيله، أما أنا فقد كنت مشغولا عن التفاصـيل بفضول تتمة حكاية خالى مع جمول · وجدته منكبا على معالجة صفيحة نحاسية دائرية ، يفتح فيها شـكلا بيضـويا ، لما رآني بادرني قبل السلام :

ــ ما رأيك بهذا الاطار ، اطار للساعة الكبيرة أم الجرس ··

ــ أحلى من الساعة نفسها ··

تناولت معه طعـام الغـداء ، فول وفتـة ومخلل وبصل ·· الشاى الساخن بيننا ·· أصـوات الطـرق ملأت السوق ، وصوت خالى الواهن ارتفع عاليا :

ــ مرت بعدها سنتان ما أخـذت خبرها ، مع أني ذهبت أول شهرين أكثر من ست مرات أدق بابها وما أحد يرد أو يفتح ، بعدها اختلفت مع عمى صـياح ، واشتغلت بمعمل لنسيج البروكار فى حماة ، واختلفت

مع صاحبه بعد أربعة أشهر ، صالحت عمي وعدت الى شغلي السابق في هذا المحل الذي تبرك فيه الآن يا خالي. .. وكنت تزوجت امرأة خالك وصار عندي المفعوص وليد ..

بسادس يوم من رجعتي ، كان رجل أراه لأول مرة يسأل عني بالاسم أخذني على واحدة من فيلات الحمرا بعد موافقة عمي على ما وصفه الرجل بتحف نحاسية .. وضع أمامي فوق طاولة الصالون حقائب جلدية مغلقة، وطلب مني معاينة محتوياتها ..

لدغتني المفاجأة ، نفس الفوانيس والأباريق والتماثيل .. انعقد لساني ما عرفت كيف أسأله ، كنت في حيرة لما نده :

ـ فنجانين قهوة يا جمول ..

وما خلص كلمته كانت بالباب ، سلمت باليد وقالت :

ـ كيف حالك ، راح أكرم سأل عنك مرتين وما وجدك .. وقبل ما تكمل صرخ طفل صغير ، ركضت الى الغرفة ، وطلبت من الرجل يغلي القهوة بنفسه لانشغالها مع الصغير ، وقبل ما تأتي القهوة دخلت جمول والطفل في حضنها ، قالت انه ابنها ، وعمره خمسة أشهر، وأكرم زوجها وصارت تمتدحه قالت : إنه

شاركها في المحل الذى ورثته ثم شاركها فى حياتها كلها ..

بعد القهوة فاجأنى أنه لا يريد ثمن الأغراض ، بل طلب اعادة فانوس وابريق وزهرية بعد اضافة النواقص لوضعها بين زينة الصالون ..

أحضر طرطيرة صغيرة ، وشحنت الصناديق الى المحل ، جن عمي من فرحه بها ، حتى أن صنعي لقطع مماثلة لتلك التحف جعلت عمي يقول : الآن أستطيع أن أرتاح بعد ما ختمت الصنعة ، أولاد عمك ما عندهم نظر ، فضلوا العمل فى التجارة على هذا الفن ..

اللوحة الملفوفة بالحرير ظلت سؤالا برأسي ليس له جواب ، لم تكن بين المحتويات ..

ظلت جمول كل فترة ترسل زوجها لأدبر لهما بيع أغراض قديمة ، أو تبديل أثاث ، لأننى ابن سوق .. وأحيانا يطلبان منى خدمات ، أؤمن لهما عمالا لاجراء ترميمات فى البيت ، أو أحضر لهما امرأة أمينة تقوم بتعزيل الفيلا كل عدة أشهر ..

آخر مرة زرت جمول كان جسدها أكثر نحولا ، وأقل حركة .. كانت تغلى القهوة فى المطبخ وصوتها يصل الى الصالون تهزج بأغنية وحدة الثمانى وخمسين، التى ظلت على لسانها بعد ما بطلت الاذاعات تبثها بسنوات :

يباركهــا .. وحــدة أجباب
توصــلنا من البــاب للبــاب
ولا حاجــز مــا بــين التنين
ولا مانــع مــا بــين التنين

آخر مرة زرتهم فوجئت بالخبر السيىء الذى أبلغنى به زوجها :

ـ جمول ، حياتك الباقيــة ، شــهر بالمشفى وما انتفعت ، مرض خبيث يا أبو وليد ..

فرطت دمعته ، قعدت أبكي معــه ، وضعت رأسي على كتفه وبكيت حتى شبعت .. حتى أن أكرم استغرب لماذا كل هذا البكاء ؟! أقنعته أن دمعتي سخية ، والست كان خيرها غامرني ، وحرام صبي وبنتين ، أكبرهم ابن تسع سنوات ينحرموا من حنان الأم ..

ولما طلب مني أخذ ثيابها رفضت وقلت له :

ـ يا سيد أكرم سأرسل لك واحــدا من معــارفي يشترى الثياب ، أما أنا فحد الله ما بيني وبينهم ..

خطرت على بالى تلك اللــوحة أم القمــاش الحرير فقلت له :

ـ آخر مرة وعدتنى السيدة رحمة الله عليها بلوحة ملفوفة بحرير ..

دخل الى غرفتها ، ثم خرج وهو يحمل اللوحة بيده وخاطبني :

ــ هذه اللوحة ، طالما وعدتك بهـا ، والثياب اذا أرسلت أحدا من طرفك ، فهي ليست للبيع ، انما حسنة عن روح المرحومة •

أما اللوحة يا خال ، فأنت تراها معلقة في صـدر غرفة الضيوف في بيتنا منذ سنوات •• عرفتها ، صورة الريس جمال عبد الناصر ••

ومع آخر كلماته غب ما بقي في كأسه من الشاي دفعة واحدة •• أشعل سـيجارة ، وغاب عني ما بين السعال •• والدخان •• والذكريات •••

●●

● حمص ــ تشرين ١/ ١٩٩١

● حبٌ كالمطر ●

١ ـ ها هي السـنوات قد مضت دون أن ينتبه ، كأنه كان مشـغولا عن مرور الزمن بهم كبير ، يضغط عليه ، يشاغله كلما كان يحاول أن يعرج الى السنوات التى انقضت ليعدها •

هذا هو الخريف ، وهذه المدينة التى جاءها ذات خريف ، ها هو يودعها ويودعها ذكرياته •

بعد أن مهرت براءة الذمة بآخر توقيع من الجامعة، سحب نفسه على مهل خارج الكلية ، فى المقهى المقابل للجامعة •

جلس على مقعـد طاولة الذكريات تلك التى كم جلس حولها مع زملائه وشرب الشاى وقضم السندوتش فى الاستراحات و ••

ولكن لماذا يموه عليكم ، لقد جلس على كل طاولات تلك الكافتيريا •

غير أن هذه الطاولة وحدها جلس حولها مرة برفقة « جمرة » التي كان يحلو له أن يسميها حين يكون وحيدا ب « نجمة » ... لأنهـا كانت توهـج ذاكـرته بأدق تفاصيل وجهها ، جسدها ، مشيتها ، حركتها الموسقة مع حركة المكان الذى يضمها ..

هى ما كانت تفتعل الحركة ، الأشياء المجاورة هى التى كانت تنظم انسجام الحركات مع كل نقلة أو كلمة تصدر عن « نجمته » ...

ربما لم يكن الأمر يحدث هكذا ، لكن أحاسيسه كلها كانت تقول : ان كل الأشياء من حولها تخضع لها ، تحاول أن تتزين بوجودها الى جوارها ، تحاول الانسجام مع حركاتها ..

مرة خطر له أن الرجل الذى يفوز بها ذات يوم لن تحترق أصابعه وحسب ، ربما احترق وترمد كله من روعة تلك الجمرة التى ستحرق قلبه أولا ... وربما تحول الى مجرد مرمدة تحتضن الجمرة النجمة المتوهجة . أحيانا كان يحسد نفسه لأنه لن يفوز بها ، أحيانا أخرى كان يحزن لأنه لن يكـون تلك المرمدة التى سـتحضن بجمرة ...

... وحيدا حـول تلك الطاولة ، بدأ يستعرض أيامه الأولى الخريفية فى الجامعة .. لكن تلك الأيام برغم حضورها العضـوى بتفاصيلها أحيـانا ، ها هى

تهرب .. تنزلق من الذاكرة . وتحضر تلك النجمة وتطغى على كل شيء .. صورتها التى انطبعت فى ذاكرته أول مرة قبل ثلاثة أعوام تقريبا لا تزال ماثلة فى ذهنه ، كأنها حدثت صباح هذا النهار ..

●●●

٢ ـ كان فى السنة الرابعة بكلية الهندسة ، كانت فى السنة الثانية . حينما صدرت نتيجة مادة للسنة الثانية ، تجمع الطلبة فى مكان تعليق النتائج .. ومن قبيل الفضول اقترب معهم ، وشرع يراقب ردود أفعالهم على النتائج .. فى الخلف كانت تنتظر بهدوء مصطنع أن يفرغ لها مكانا تتطلع منه الى النتائج .. ولأن الانسان فى لحظات الانتظار تلك يفقد أعصابه اذا كانت توقعاته تتأرجح بين الرسوب والنجاح ، فقد طلبت منه أن يفتش لها عن علامتها ، لأن أحدا لم يخل لها مكانا بعد عدة دقائق ..

هى أول مرة يراها فيها ، ولم يصدق أن تلك الزميلة تدرس معهم فى نفس الكلية .. والا كان من المفروض أن يعرفها من قبل ، انها وجه مختلف ، ليست مجرد طالبة أو امرأة ، انها نجمة ..

وتلك النجمة طلبت منه أن ينظر الى نتيجتها ، كاد من فرحته أن يهم بالبحث عن نتيجتها فى الأوراق

المعلقة قبل أن يسألها عن اسمها · لكنهــا أسـعفته فى اللحظة الأخيرة قبل أن يدير وجهه للنتائج همست :

ـ جمرة ·· ردد خلفها : جمرة !!

حينما بدأ البحث عن اسمها في القوائم ·· نسيه ·· خجل من نفسه ، عاد يتـذكر نجمـة أو جوهرة أو جمان ··

بدأ بحرف الجيم : جابر ، جانيت ، ·· جمال ، جمرة · نعم جمرة ، أخذ خطا أفقيا بنظرة ، تطلع الى العلامة ، خيبته النتيجة ، أعاد التـدقيق ثانيـة ومرة ثالثة ·· تمنى لو أن عينيه خانتاه ··· تمنى لو أنه كأن مدرس المادة ليضع لها العـلامة الكاملة ، لو انه يستطيع تغيير علامتها من رسوب الى نجاح ··

عاد نحوها بخطوتين الى الوراء ، عاد مكسـورا ، حزينا كأنها نتيجته أو المسئول عن رسوبها ··

لم يعد حينها بحاجة ليقول لها النتيجة بالكلمات ، فهمت لوحدها ·· الى درجة أن الابتسـامة التى عـلى وجهها ماتت بالسكتة القلبية · الى درجة أنه اتضح له فى تلك اللحظة أنه لا يمكن لاسم آخر أن يعبر عنهـا سوى « جمرة » لقد احمر وجهها الى درجة الخجـل من نفسها ، منه ، هو الذى لا تعرفه من قبل ··

لكن كيف تماسكت من جديد ، وتوهجت بالابتسام ثقوا أنه حتى الآن لا يدرى ·

يذكر أنها قالت :

ــ على سلامتك يا زميل ، ليست مشكلة ، فالأمور لا تتوقف على مادة واحدة ••

تصوروا أن الأمر حدث هكذا ، بدل أن يعزيهـا ويلملم انكسارها قامت هى بتعزيتــه ، لثمت جــرحه بكلماتها « على سلامتك يا زميل •• » •

•• من قال ان عصر الآلة هزم الحب ، ان أصحاب العشق قد انقرضوا من القرن العشرين ، فليأت ويعرف هذا الذى نخر العشق قلبه ••

ها هو الآن على مقعـد تلك الطاولة التى شـهدت جلستهما معا ، حاول مرارا من قبل أن يتذكر من الذى رسب فى تلك المادة هو أم هى ؟ ولم يستطع أن يحدد•• وها هو الآن يحاول أن يحدد لكنه لن يستطيع ••

•• يشرب فنجان القهوة ، تفاجئه ابتسامتها فى الفنجان •

تذكر معها كل خيباته وجبنه ••

●●●

٣ ــ رآها للمرة الثانيــة فى ممر الطابق الأول • رآها من بعيد ، حينما حاذته تماما حيته بابتســامة ، لكنه كالأبله لم يبتسم ، لم يعرف كيف يرد على التحية

الابتسامة ·· ربما كان يفكر أن ابتسامته لن تفيها حقها ، لا تساوى ابتسامتها ، ربما فاتته الابتسامة وهو يحاول أن يخترع طريقة جديدة لتحيتها قبل أن تصل الى محاذاته ··

لكن الأمر المؤكد أنه يومها لم يرد على التحية ··· وأنه قرر فيما بعد أن ابتسامتها في كفة وكل ابتسامات الخلق فى كفة أخرى ··

·· بعد تلك المرة ، رآها كثيرا داخل أروقة الكلية ، فى المكتبة وفى الحديقة حيث يرسم الطلاب مشاويرهم الصغيرة خلال الاستراحات ··

●●●

٤ ــ كانت دائما نجمة فى نظره ، أما الآخرون فكان يستغرب كيف يمرون من جوارها دون أن ينتبهوا لها ، دون أن يحنوا رءوسهم لتحيتها ··

سأل أحد زملائه فى حديث عابر حينما مرت بجوارهما وابتسمت له كعادتها ، ما رأيك بجمال هذه الزميلة التى ابتسمت ؟

وكاد أن يشتم زميله ، لأنه قال : عادية ··

لكنه أكد أن فيها شيئا ساحرا لا يستطيع التعبير عنه ، وأن زميله قاصر عن فهمه أو اكتشافه ··

ذات يوم جاء زميله نفسه ليخبره عن نجمته أنهـا في مساء اليوم السابق كانت متألقة أكثر من كل نجوم السماء قاطبة ..

سأل متلهفا : أين ؟ كيف ؟

جاءته كلمات زميله : كنت برفقة صديق ننتظـر الدخول الى عـرض سـينمائي ضمن نشاطات النـادى السـينمائى كان عـدد المنتظـرين كبيرا ، وإمام باب السينما كانت كل العيون تنظر باتجاه نجمتك ..

... كانت الفتيات والنساء كثيرات ، وجميلات لكن نجمتك أطفأت كل جمالهن بحضورها ..

أقسم أن كل العيون كانت تنظر باتجاهها ، حتى غارت النســاء منها ، وكانت هى تبتسم للجميع وبكل بساطة ...

كاد أن يحتج على زميله ، أن يصرخ فى وجهه أن تلك الابتسامات له وحده ... لكن زميله أكد له أنها كانت برفقة شاب ...

وأن الرجال حسـدوا ذلك الواقف الى جانبهـا ، وتمنوا لو كانوا فى مكانه ..

أسعده زميله بالاطراء على نجمته « جمرة » التى اكتشفها قبل الجميع ..

لكنه أحس بالاهانة لرفقتها الشاب ، كأنها حبيبته ويغار عليها · هو الذى لم يكن من قبل سوى ذلك الذى جاء لها بنتيجة أحد المقررات ·· بعدها لاحظ رفقتها لزميل جامعي من كلية أخرى ، لاحظ زياراته المتلاحقة الى الكلية ، وعندما كان يراهما معـا ، يتمشـيان فى الحديقة ، يجلسان فى الكافتيريا ، يضحكان ويتحادثان، كان يحس بالغيرة من ذلك الشـــاب · وكان كعـادته يحسده ···

●●●

٥ ــ كان يمشي برفقة أحد أصدقائه فى حديقـة الكلية ، كانت تمشي خلفهما برفقة احدى زميلاتها ·· استوقفه بجانب صنبوز المياه أحد الزملاء ليسـأله عن محاضرة سابقة ، عرجت الى الصـــنبور ورشـقت على وجهها الماء ، حينما همت زميلتها بالسير ، طلبت منهـا الوقوف ، هكذا بمواجهته تفصلهما مسافة مترين ، هـو مع صديقه ، هى مع زميلتها · ابتسـمت له بعينيها ، تشجعه ليسلم عليها ، ليحادثها ·· كأنها كانت تدعوه ليرافقها رسم المشوار على رصيف حديقة الكلية ·· شيء ما لا يدريه منعه أن يفعل ، حتى نظراته للمها ووجهها الى جهة أخرى ، وأشار لصديقه أن يتابعا المسير !!

كان فى المكتبة يحل احدى مسائله الدراسية ··

كانت داخل المكتبة ، تتحدث مع زميلاتها المتحلقات حول طاولة فى الزاوية ‥ رآها تنظر باتجاهه ، خجل من نظراتها ، انكب على دفاتره وآلته الحاسبة وقوانين البحث ‥

بعد دقائق أحس أنه أصبح هنـاك من يشـاركه الطاولة ، تطلع بفضول يستكشف جاره الجـديد عـلى الطاولة ، فوجىء بابتسامتها على الطرف الآخر ‥ هى ، بكل ما فيها ‥ شعرها المربوط بشريطة صفراء صغيرة كالأطفال ‥ عيناها السوداوان الحزينتان الفرحتان والابتسامة ٠ حيتـه كعادتهـا بالابتسـامة ، طاوعته ابتسامة رد ‥ عاد بعدها الى انكبابه على دفاتره ، وان يكن لم يعد يعرف أين وصـل فى حل المسـألة ، وكيف يمكنه أن يتم حلها ‥

تحرشت به بطريقة لبقة ، استعارت ممحاته ‥ غير أنه لم يفهم قصدها ‥ أعادت الممحاة ، اسـتعارت آلته الحاسبة ، ولكى تكون أكثر وضوحا ، كانت آلتهـا الحاسبة فى يدها نفسها التى تناولت منه آلته ‥ غير أنه لم يفهم ، ظن أن آلتها معطلة ‥

ولم ينتبه باتجاههـا ، ولو انتبه لعـرف أنهـا لم تستخدم الآلة الحاسبة بل وضعتها جانبا ‥٠

أخيرا ضجرت منه ، من سذاجته ، قامت عن مقعد

الطاولة ، أعادت له الآلة وابتسمت بسخرية وهى تبتعد على مهل ...

●●●

٦ ـ بعد أيام كان ثمة زميل من كليته يمشى معها، ضارا لا يفترقان داخل الكلية وخارجها .. يصطدم بهما أينما ذهب ، يتعثر بهما فى الأروقة ، فى المكتبة، فى الكافتيريا ..

لكن أكثر ما عذبه أنهما كانا ينبتان أحيانا فى وجهه فجأة ، فى حدائق المدينة الجامعية ، فى طريق ما داخل شوارع المدينة ، أمام باب السينما ، أمام أحد المطاعم يقضمان سندويتشا بفرح وحب ...

مرات كثيرة حصل ذلك ، كان يهوى المشى داخل المدينة فى المساء ، وفى تلك الأمسيات ضارا ينبتان فى وجهه ، كأنهما لا يفعلان ذلك الا لأجل أن يراهما ، كى ينغصا عليه مشاويره ، كى يلغيا جمال تلك الأمسيات، أخيرا قرر الغاء نزهته المسائية فى المدينة ، تصوروا !

●●●

٧ ـ أما تلك المرة الوحيدة التى جلسن معها فى الكافتيريا ، يومها استيقظ باكرا ، نشيطا كان ، صعد الى سطح الوحدة التى يسكنها فى المدينة الجامعية .

راقب من هناك حركة الناس فى صباح الشوارع المجاورة لسور المدينة ، أسعدته تلك الحـــركة المليئة بالحياة والحيوية ، أحس كم العمل جميـــل ، كم البشر رائعون ...

هبط الى كليته يرافقه هذا الشعور بالفرح ... رآها وهو يدخـــل الى الحـــرم الجامعى ، كانت بغيـــدة يرافقها زميلها أو صديقها أو عشيقها لا يهم ... لم يزعجه منظرهما معا تلك المرة ، لمحته ينظر باتجاههـــا وهو يسير على مهل باتجاه مدخل مبنى الكلية ، ابتسم لها .. ردت عـــلى تحيته وعقصت شـــعرها الى الخلف بحركة من رأسها ولمسة من يدها ...

دخل الى المحاضرة ، بعد نصف ساعة مل من الدرس الجامد ، فخرج . رآها وحدها فى ممر الطابق الثالث تحمل مضـــارب كرة الطاولة ، تتطلع عبر النـــافذة الى المدينة المتربشة على سفح الجبل ...

أدارت وجهها ، ابتسم لها من بعيد ، مشت نحوه ، تأمل جمالها ، مشيتها المتأنية ، وشعرها المتأرجح حول الرأس ...

مدت يدها ، صافحته ، حلق قلبـــه من السعـــادة ، انتفض من الفرح .

كاد أن يقول لها كم أنت جميلة اليوم يا نجمتى ، كم .. وكم ، لم يقل شـــيئا تطلع الى عينيها الحزينتين

المبتسمتين • رفعت اليد التي تحمل المضارب الى الأعلى، دعته الى أن يرافقها ويشاركها اللعب في «كرة الطاولة» كاد أن يطير من الفرح •• حمل مضربا واتجـه يمشي بجانبها الى حيث الطاولة التي كانت تنتظرهما لتضـج بالحياة •• سألته لما خرج من المحاضرة ؟ قال : انه مل من جمودها •• وكانت في داخله اجابة أخرى / لنلعب معا في كرة الطاولة •• / ••

لعب كـرة الطاولة ، كانت حركتهـا السريعـة ، لياقتها العالية ، تفننها في صـد الضربات وارسالها ، مسكتها الغريبة لمقبض المضرب ، التقاطها السريع للكرة حينما تخرج عن مسـاحة الطاولة ، وركضتها الجميلة لالتقاط الكرة البيضاء ، قبل أن تفر بعيـدا •• كانت كلها تنضح فنا ••

كل ذلك كان يفرحه ، يسعده •• كانت مشـدودة بكاملها في اللعب ، لم تعطه انتباها سوى الى اللعب ، تنظر اليه كخصم يدافع عن الجهة الثانية من الطاولة ، لكنه كان خصما سهلا ••

لما انتهت اللعبة ، دعته الى كأس من الشاى فى الكافتيريا المقابلة للكلية ••

فكانت تلك الجلسة اليتيمة حول تلك الطاولة التي أسماها « طاولة الذكريات » جلست قبالته ، ما سـألته شيئا ، بقيت صامتة لعله يتشجع ويحكى ••

أما هو ، فكان يفكر أنه يكفيه أن يتطلع الى العيون الجميلة ...

لما جاء النادل بالشاى فاجأته وهى تخرج من محفظتها علبة تبغ وناولته سيجارة مشتعلة ، لم يستطع رفضها ، لم يعد أمامه أن يتذرع بأنه لا يدخن ، ولم يدخن من قبل .. وببساطة متناهية اكتشفت أنه يدخن للمرة الأولى . قالت له ذلك ، حرك رأسه للأسفل يقر بنتيجتها وخجل لأنه لم يدخن من قبل ..

أما هى فما خجلت ، ضحكت بكل ما تستطيع لتصرفاته .. سألته عن دراسته ، أخباره ، ما الذى يفعله خارج الجامعة ، خارج أوقات الدراسة ؟

أخبرها أنه أحيانا يتمشى فى المساء ، وأحيانا يزوره الأصدقاء وبقية الأوقات للدراسة ... قالت :

ــ فقط !!

زم شفتيه ، كأنه يسألها وماذا يمكن أن يفعل الناس غير ذلك ؟

ماذا يمكن أن يفعل طلبة الجامعة غير الدراسة ؟

أخبرته عن الأسئلة المخبوءة على جبينه :

ــ سينما ، مسرح ، ملاعب كرة ، مشاوير برفقة الأصدقاء ، معارض فنية ، متاحف ، أمسيات شعرية ،

قراءة كتب غير المقررات أدب وفن وثقافة عامة ، موسيقى ، تلفاز ، و •• حب ••

فاجأته كلمتها الأخيرة : حب! وأعادتها ، فأدهشته النغمة الجميلة التى انطلقت بها الشفاه لمرات ثلاث :

حب •• حب •• حب ••

بماذا يجيب وقد فاجأه تماما أن الطلاب يمكن أن يفعلوا ذلك : أو يقوموا بزيارة السينما والمسارح والملاعب وأمسيات الشعر ، ويشغلون أنفسهم بغير كتبهم المقررة •• وأنهم يحبون !!

أجابها بعد صمت دقائق :

ـ لا شىء من هذا أبدا ••

حزنت لاجابته ، قالت :

ـ هذه ليست حياة •• كأنك ميت

ـ أنا كذلك ••

ـ حاول أن تولد من جديد ••

ـ ••••

ـ الحياة جميلة •••

ـ ••••

شجعته كثيرا بكلماتها ، تنصت الى حديثها باهتمام •• ما كانت تدرى أنها عبثا تعاد الحياة للأموات ••

حين ودعته ، حيث أدركها الوقت تريد الدخول الى المحاضرة ، قرر أن يعيش الحياة كما شرحتها له تلك الجمرة التي هي أصغر منه في السن ، أكبر منه كثيرا في التجربة ، في الحياة ...

غير أنه لم يفعل شيئا مما قرر ..

●●●

٨ ـ ها هو الآن على تلك الطاولة .. يتذكر حديثها ، كل كلماتها في أذنيه .. وها هو يتذكر الآن دعوتها له في اليوم التالي الى السينما ..

قالت له ان العرض جميل ، في دار سينما تابعة للدولة ، تقدم عروضا جادة جميلة .. كان برفقتها ذلك الشاب ، عرفته عليه ، قال له تشرفنا بالمعرفة .. واعتذر عن مرافقتهما الى صالة السينما ، قال في نفسه يجب أن لا أتطفل عليهما ، تذرع بمشاريع الدراسة ، بمشروع التخرج ولوحات الرسم ..

ويتذكر الآن أنه في مساء اليوم التالي ، هبط بمفرده الى صالة السينما وحضر العرض الذى أشارت اليه بدعوتها ..

بعد ثلاثة أيام رآها لآخر مرة ، وطلبت منه أن يرافقها والوقت غروب الى معرض الزهور، كان الربيع رائعا ، نيسان في أيامه الأخيرة ، والمدينة بكاملها تتحدث عن معرض الزهور ..

أما هو فما سمع به الا من دعوتهـا التى اعتـذر عنها بسبب الانشغال فى طباعة مشروع التخرج !

●●●

٩ ــ ها هو الآن يخرج من الكافتيريا ، بيده براءة الذمة ، يودع هذه المدينة ، الى حيث المدينة التى عين فيها بعد التخرج ..

سيترك كل ذكرياته في الجامعة ، لأروقة ومدرجات وكافتيريا الجـــامعة سيترك كل شيء فى مكانه حيث حدث ...

الشيء الوحيـد المطبـوع فى الذاكرة ، الذى لن ينساه ولا يستطيع نسيانه حتى ولو حاول تلك النجمة الجمرة المتوهجة بكل تفاصيلها ..

وذلك العرض السينمائى اليتيم الذى حضره فى هذه المدينة ..

حب « كالمطر » كأن العرض كان يتحدث عنها ..

سيحمل معه الى الأبد ، النجمة الجمرة والحب الذى كان كالمطر ..

المطـر الذى يزيد فى توهــج الجمــرة والنجـوم ولا يستطيع اخماد نارها وضوئها وتوهجها ..

●●●

● دمشق / نيسان ١٩٨٧

● هذيانات مسرحية لرجل كان عاقلا جدا ‥ ●

من مسرح القباني(١) الى محطة الحجاز ، مشوار مسرحية كان اسمها فواز الساجر (٢) ممثلون شبان متحمسون ، ملك ، ملكة ، دوق أو ملاكم محترف ، فتاة ، والد ، طفل ، دب : غوركي ، بائع حليب أبكم، عازف ، رئيس عمال ومساعد لورشة هدم ‥ وأنا وكل حواسي متحفز للاندهاش بلقاء وليام سارويان مع الساحر وسكان الكهف ‥

انها اللعبة ، وأنا لازلت أحدث نفسي بعد الخروج من قاعة العرض ، عابرا شوارع دمشق ، مأخوذا بما تلقيت أقذف عبر ايقاع مشيتي نثرات ما سمعت ورأيت على فضاء الشارع ‥

---

(١) مسرح القباني : المسرح الذى يعرض عليه نتائج المسرح القومى فى سورية والاسم نسبة لابى خليل القبانى ‥‥

(٢) فواز الساجر : مخرج مسرحى سورى راحل (١٩٤٨ ـ ١٩٨٨) آخر اعماله ا اخراج مسرحية ، سكان الكهف ، تاليف وليام سارويان ‥

أحاور الشخصيات ، وأنصت بشغف لموسيقى الكمان ، لموسيقاها ..

كان يجب أن تأتى معى يا ميرا .. كان يجب ..

أتذكرين كيف بكيت رحيله ، لو أتيت اليوم : كان فواز حاضرا بيننا رغم غيابه ، كان حضوره أكثر منا جميعا ..

لو أنك أتيت فقط ، وجلسنا كملكين، نتبادل القبل بين فصول المسرحية ، فرحين بنجاحها ..

المسرح هو الحب أعلنها ساروريان، جسدها الساجر

بأبطاله طلقات تفرقع بوجه اللعبة الأمريكية ، وجه الألم والخيبة ..

الطوق الذى شكلته الأجساد المتآزرة بالروح والفكر والحلم ، طوق لفك حصار الخوف ، للرد على العزلة .. والكهف يندهش للضوء المبثوث من الطوق البشرى ..

●●●

كان يمشى الآن مترنحا بالنشوة ، والمسار المعتم يردد صدى دواخله .. منذ زمن بعيد كان يريد أن يمسرح شيئا من حياته .. خيبة قلمه ، كلما أمسك

به ليكتب كان القلم يسفح دموعا تنش فلا تبان الحروف ولا تتوضح الأفكار ..

كان احساسه أكبر من حبر الكتابة ، فلم يكتب ..

ما أجاد القلم ترتيب نزف الروح ، ولا ضبط ايقاع حرمانات الجسد ، لكنه ما تراجع .. والعمر يتقدم والتجربة تنضج أعد مسرحية على الورق ، جاء بنثيراتها من التاريخ ، ربط بينها وسماها درس ابتدائى فى التاريخ :

●●●

كان الآن فى الصف الأول من الخيالات الراحلة بالمسرحية التى أعدمت وهى قيد الدرس داخل راسه الخيبة ..

كان معاوية يقف متسولا نعتا جميلا غير / أكبر دهاة العرب / ..

كانت أسطورته المدخل ، الكاهن اليمنى يعلن لهند بنت عتبة أنها ستلد مليكا اسمه معاوية فتركت زوجها واختارت للملك القادم أبا يليق به فكان أبا سفيان ..

وكان فصل الختام ميتة غيلان الدمشقى على يد هشام بن عبد الملك مصلوبا على باب دمشق ، بينما تقتطع أطرافه على التوالى .

وغيلان يتابع انتقاده للسلطة حتى قطع اللســان المحرض ..

.. كان الممثل الذي عهد اليه دور غيلان يرتجف ويتعرق ويكاد أن يبول في ثيابه من خوفه ، ويســأل المخــرج كيف ستقطعون أطــرافي ، كيف ســتقدمون المسرحية بعد العرض الاول ، هل ستغيرون الممثلين كل يــوم ؟!

أما الممثل المعــاوية فكان يضبحك ضــحكة تغرم الروح هازئا وشامتا بالممثل غيــلان .. بين البــداية معاوية والنهاية غيلان تثيرات من المشاهد ..

الجعد بن درهم يتحدى خالد القسرى الذى ضحى به أمام الجميع بعد خطبة العيد ، كان الجعد يصرخ فى وجهــه أنا أومن برب أبى ذر الطيب . برب هــؤلاء الفقراء ، لا أومن بسلطتك التى تضحى بى ..

فى آخر مقعد من المسرح بعيداً عن المنصة كانت « عريب » تنشد مغنية رثاء مبكيا لابعاد المتوكل لحبيبها الخادم :

أما الحبيب فقد مضى   بالرغم منى لا الرضا
أخطأت فى تركى لمن   لم ألق منــه العوضــا

وكان السياف مسرورا (وأنا منذ سمعت باســمه أستغرب ما الذى يسره !!) يقف خلف البــاب لقطــع

أعناق العشاق ، وأعناق الزهـور التى أهدتهـا لهـم حبيباتهم ..

وكان المسرور يضحك بقهقهة طويلة ، بينما سمع صوت مخزون يقول ان عزرائيل عندما يقبض الأرواح يكاد يبكي من الحزن ..

طلاب درس التاريخ الابتدائى كانوا يتسـاءلون عن السبب ، وما كان أحد يجيب ، سوى صدى لصوت بريخت ملأ القاعة (لن يقول أحد لقد كان زمنا صعبا، بل سيقولون : لقد صمت الشعراء ..)

العبارة التي قالها فواز الساجر لـزوجه فطمة ضميراوى لما نصحته :

قليلا من الهدوء يا رجل ، قليلا من الراحة ..

●●●

أنتم لا تعـرفون ميرا ولا كيف عرفتهـا ، أنتم لا تعرفون حزنها .. ميرا : لماذا كل هـذا الحـزن ؟ لماذا ؟ لماذا يا سيدة فرح السـنوات البعيـدة .. قلت مسكنا كلماتي كل سنوات قهرى وأسـاى .. ضـحكت ضحكة متقطعة ، ما لبثت أن أجهشت بالبكاء ، ابتسم الدمع ، أجاب ..

لكنني يا سيدتي ما فهمت ..

تمترست بالصمت ، ونظرة ما بين الابتسام والبكاء .. مددت يدى نحوها ، آمسكت أصابعها بيدى فاستكانت ، كما لو أنها تضمها أم حنون .

قلت : أنا غريب فى المدينة ..

أدارت رأسها نحوى ، احتجت عيناها على تعبير الغربة . أصلحت عبارتى :

أنا جديد فى هذه المدينة الصغيرة ، أنت تعرفين كل حدائقها لتقودني خطاك الى مقعد تحت أجمل شجرة فيها ...

وتابعنا الخطى باتئاد .. عبرنا طرقا مزدحمة ، ومررنا بحارة هادئة لا بشر فى شوارعها ..

من نظراتها عرفت أن لا حديقة فى المدينة ، لا شجر ولا ورود .

هبطنا سلما الى قبو ، على بابه يافطة وخط كوفى : مقهى الانشراح !

انزوينا فى ركن المقهى كقطين مفزوعين ... وما كان بعدها من حديثنا سوى الصمت والبكاء ...

ولما خرجنا .. لما أردنا جهات بعيدة ، قالت أخيرا :

لماذا كل هذا الحزن ؟ لماذا يا سيد الحزن للسنوات كلها !! ؟

●●●

كان الآن أمام عتبة البيت ، وكان لا يزال يتساءل : لماذا لم تجيء ؟ أهي خزيئة على الساجر الى هذه الدرجة ٠٠ ومن حزنه أمام العتبة بكى ونشج بصوت مخنوق ٠٠

فى الصباح الباكر ، مر عامل التنظيفات ، لم الرجل فى صفيحة عتيقة بمساعدة مكنسة ٠ وأودعه عربته ، ثم سار فى الطريق يلملم أقذارا أخرى من تلك التى يرمونها فى قاع المدينة ، تلك التى يأمر السادة بترحيلها بعيدا ، بعيدا ٠٠

●●●

● دمشق / ١٩٨٩

● عمـــورة .. ●

لو أن أحد الذين يقرءون كلمـاتى الآن أتيح له رؤيتى لسألنى فورا عن النتوء الواضح فى جبينى ، ولأجبت أنه بفعل عصا عمورة .

أما اذا سئلت لماذا ؟ فاننى لن أستطيع التفسير ، وانما سأروى له أشـياء كثيرة عن عمـورة ، وله أن يستنتج منها السبب .

●●●

بيت عمـورة :

اذا هبطت من حافلة النقل أمام موقف (الشـيخ سعد) فى المزة القديمة ، وأدرت ظهرك للموقف هابطا فى شوارع الحى ، ستواجه بعـد عدة أمتـار الفرن الآلى ، فاذا تجاوزته وانعطفت يمينا دخلت فى الأزقة الضيقة لحارات المزة ، تعد من أول زقاق خمسـة أبواب

وتصل الى باب قديم مكسى بصنفيح تنك صدىء ، عليه مدق بشكل الاجاصة ، فوقه قوس خشبي صغير مهترىء .. انه باب بيت عمورة ..

البيت يتألف من غرفة طينية ومنتفعاتها وفسحة صغيرة تتوسطها شجرة / الأكى دنيا / ..

فاذا كان عمورة داخل البيت فانك لا تحتاج لتلك الدلالات اذ انك تكتشفه من صوته القوى والجميل الذى ينبعث من بين تلك الأزقة والذى يصل الى الفرن الآلى غرباً بل ويتجاوزه الى دكان الصالحانى ... ويسمع من الناحية الأخرى حتى السوق العتيق ويكاد يتجاوزه الى بستان الصبار في حارة / مراى / المتاخم للأبنية المرفهة القايعة على طرف الاتوستراد

ان عمورة دائم الغناء .. ويقول جيرانه : أنه يفعل ذلك لسببين ، الأول أن يؤنس وحدته ، والثانى كى يعرف اللصوص (يشاع أن عمورة يخاف جدا ..) انه مستيقظ وحذر ..

(وأنا أستبعد الاحتمال الثاني ، لاعتقادى أنه لا يوجد لدى عمورة ما يخشى عليه من اللصوص) .



عمورة بائع بوشار :

كنا صغارا نتراكض باتجاهه عندما يلج شارعنا ،

بأيدينا نحمل الفرنكات القليلة ، وفي قلوبنا فرح الأسنان بطعم حبات الذرة الصفراء المحمصة وجيوبنا تستعد للامتلاء بها ..

عمورة تعرفه من صوته الجميل وهو ينادي على البوشار حينا ، أو يغني ما يحلو له من الكلمات التي تخطر في ذهنه أيا كانت اذا لم تساعده الذاكرة بالتقاط أغنية ما .. وتعرفه من عباءته المهترئة وصندله البني العتيق ، من عكازته وعينيه الصغيرتين المطفأتي النور والتي رأيته مرة واحدة يخبئها خلف نظارة سوداء ..

بيد يحمل كيس البوشار ، بالأخرى العصا القصيرة التي تتناسب مع طوله والتي تقوم بمهمة العينين ..

كنا نتسابق اليه ، ولم يكن لينقطع عن الغناء حتى وهو يناولنا البوشار بعد أن نأخذ بيده الى جوار الجدار ، يتناول قطعة النقود يقربها من عينيه الى درجة الالتصاق ، ثم يعود لتلمسها وتحسسها بأصابعه قبل أن يدفنها في كيس مخفي ما بين صدره وعباءته ، ولم يكن يخطيء في معرفة ما نعطيه ، كنا ندهش لتفريقه بين الفرنك والربع ليرة برغم تساوي حجمها .

فكانت محاولات غشه كلها فاشلة ..

أما مكياله الدقيق ، فنجان صغير مقابل كل فرنك واحد ..

أحيانا كنا نتحلق حـوله ونصيح « عمـورة .. عمورة .. عمورة .. » كان يضحك يبتهج .. لـكن ما أن نلفظ كلمة سيئة مثـل « عموره شـخ بلباسـه بندوره .. » . حتى ينقطع عن الغناء والضحك ويرفع عصاه ويغضب ويشتم بلسان متلعثم ، فنتفرق ونفـر بعيدا عنه ...

●●●

عمورة المسحراتى :

في رمضان يصبح عمورة مسحراتى الحى .. يحمل طبلته ويوقظ الصـائمين ، بطبله وصـوته .. يدق بعصاه على الأبواب وهـو ينادى بصـوته القوى ممزقا سكون الليل ، ضافيا عليه جمالا وأنسا :

(يا نايم وحد الدايم) أو

(الدنيا رمضان ، وفاقت كل الشام .. ويا الله يا عدنان ، ياالله يا هشام)

(رمضان كريم ، والله حى .. قوموا ، فيقـوا يا أهل الحى)

في الأيام التى كنا نسهر فيها حتى وقت السحور ، كان والدى يخرج الى باب الديار ويتحدث معـه قليلا وقد يناوله شيئا ما من السحور ..

في صباح أول أيام العيد يمر مبكرا مباركا ، يأخذ ما يقدمه له الناس عن مهمته الليلية التي أداها على مدار شهر كامل .

وأعتقد أن لا ثمن البوشار ولا تلك / العيديات / كانتا تكفيان عمورة لسد حاجاته ..

فيما بعد ومع ظهور عربات تحميص البوشار الآلية هجر عمورة بيع البوشار هزمت صنعته .. ثم ترك دوره كمسحراتي في رمضان وصار مغنيا في الأعراس والمناسبات .. وحتى هذه أيضا هجرها مع الزمن ..

●●●

يقولون :

في الحارة ، أنه استقر في آخر مرة يعمل في (حمام الورد) ، أو بالعربي الفصيح هو اسم لحمام النساء . لكونه غير مبصر ، يناولهن حاجياتهن من مناشف وصابون و .. الخ ..

ولم يكن عمورة متزوجا ، فلا زوجة ولا ولد .. كانت تلك فرصته للاختلاط مع جنس حواء ، ليسمع الصوت الناعم ، ويحس بالأجساد الطرية وهي ترشق الماء على التفاصيل الغضة التي لم يرها عمورة أبدا ..

لكن عمورة كان يحس بنقيصـــة أن يعرف النـــاس أن عمورة على آخر الزمن صار يعمل في حمام النساء ٠٠

●●●

أنا وعمـــورة :

من زمن طويل لم أر فيه عمورة ، ويوم أمس رأيته رأيته ، عرفته قبل أن تبصره عيناى ، كان يغني من بعيد كعادته ، السماء تمطر رذاذا ، كلمـاته تســبقه « هالغيمة ٠٠ غيمة خير ٠٠ كلها بركة ، كلها خير ٠٠ ياناس شوفوا هالمطرة ٠٠ وصـــونوا الميــه قطــرة ٠٠ قطرة ٠٠ الخ » ٠

كان صوته لم يزل قويا ، شجيا ، وكلماته لا تزال أجمل من كلمات الكثير من أغانى الاذاعة هذه الأيام٠٠

غير أنه كان يمشى بتثاقل ، عصاه بيده ، حـــركة قدميه بطيئة ، صلعته دون غطاء ، ولا كيس بين يديه ٠

عندما اقتربت منه أحببت أن أسترجع ذكرى تلك السنوات التى ابتعدت ، خاطبته :

« كيف حال عمورة ، كيف هالمطر معك ؟ »

أجاب « مستورة ، مستورة ٠٠ مطرة خير ، خـــير وبركة ٠٠ »

ولا أدرى ما الذى دفعنى أسأله مازحا :

«صحيح عموره اشتغلت بزمانك بحمام النسوان؟»

أجابنى ولكن ليس بلسـانه وانمـا بـ ·· (آخ ياجبينى ··)

والبقية عنـدكم ···

●●●

دمشق / ١٩٨٨

فهـرس

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى خمسة وعشرون قرشاً
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب